هذا الرصاص أحبه
أو [مريم والكرسي]

رواية

هاني السالمي

مؤسسة عبد المحسن القطَّان
رام الله – فلسطين
2013

[أحداث هذه الرواية حقيقية، وكتبت بعد مقابلة زوجة أحد المقاومين، ووجدتُ أنها تشبهُ آلاف النساء التي تُعاني من عزلة دائمة من زوجها ... لكن ثم تبديل بعض الشخصيات وتعديل سلوكهم في الرواية، لتليق للفهم العربي، لمعنى المقاومة....].

هاني السالمي

البقعة الحمراء على السرير

ولدت مريم على السرير الذي تجلس فوق حافته الآن، السرير كان هو والخزانة والمنضدة من ممتلكات غرفة نوم أمها، وحين تقدّمت أخشابه في العمر، وتقشر من لمعته البرتقالية واللون البنّي، برزت تجاعيده على الجوانب، أصبح كقطعة أثرية، ربما لأنه صغير ولا تكفي مساحته لأمها وأبيها وأخوتها الصغار الذين يتقافزون طول النهار عليه كأنه أرجوحة.

هذا السرير لو له لسان لسرد تاريخاً موجعاً عن حياة الحي الذي ولدت فيه مريم ... كان له غطاء أبيض يجر على أرضية الغرفة، يمنع الضوء من التسلل أسفله. لكن حين تفقد العائلة أي شيء تجري لتبحث تحته، حين تكشف الغطاء لتنظر أسفله ستجد كل الأشياء التي فقدت بقصدٍ ودون قصد ... ستجد دفاتر قديمة لها رائحة القلاع، وقطع قماش تدل أنها كانت في يوم ما فستاناً أو بنطالاً.

قطع سوداء صغيرة طرية عفنة مدببة فوق القماش متناثرة. العاقل يقول: إن البيت لا نسكنه وحدنا، هناك عائلة الفئران الرمادية

تشاركك طعم الطحين وطعم السكر، وقد تنام على الموسيقى نفسها التي تحب أن تنام على أنغامها، تشاركك التحليل السياسي وراء كل خبر. حين تكثر في البيت، تعلم الفئران أن كبونات التغذية ستضخ في بيوت الحي، وحين تهجره تكون قد جاء موسم القطط في شهر آذار، كما أن الرجال ينشطون في المكاتب التنظيمية في الشهر نفسه.

... حين تظل برأسك راكعاً إن كنت عجولاً، وفي وقت البحث الدقيق تسجد مشابهاً الصلاة لتطل تحت السرير، حين تفتش عن بطاقة هوية أو ورقة تثبت وجودك في هذا الحي، ستظل ساجداً أسفله طويلاً.

إن لم تكن عجولاً في البحث، الأشياء المتروكة في فضائه الدامس، تجرك إلى عالم الذكريات، بكل صدق حين تلتقط إحدى الصور الشمسية لتغوص في تفاصيلها، وتسرح بك الذاكرة لتتمتم: أنا كنت هناك، وكان معي أناس، وستخبر نفسك: القصة التي تحملها كل صورة، على الرغم من أنك عايشتها بتفاصيلها الدقيقة، لكن في وقت البحث تكون مهموماً، وأنت بحاجة لنزهة الروح للحظات السعادة.

ولو كانت الصورة على شاطئ البحر، اللون الأزرق والصدف المزركش باللون البني، والصخور التي تكسر بياض الموج، ستقضي دقائق طويلة مع ماضيك.

من فتحة صغيرة غير مقصودة لأسفل هذا السرير، سَتلخص قصة هذه العائلة من طقوسهم السنوية، ثيابهم البسيطة، ألعاب الأطفال المصنوعة باليد، ولا تدخل لتفاصيل الإلكتروني في جوف عرائسهم. يوجد أيضا بعض معلبات سمك (السردينة) والفول المصري، وأهم شيء قد تجد تحت السرير الأدوات المنزلية التي تستخدم في حماية البيوت من مطر الشتاء، شاكوش، مسامير، أسلاك معدنية، بعض الأخشاب

الصورة الوحيدة القديمة التي دائماً تجدها تحت السرير، صورة فاطمة الفوتوغرافية جدة مريم، هي سيدة عاشت عوراء وماتت، ودفنت على الحدود بين مصر وفلسطين، كانت الحدود قبل العام 1980 وهمية، يمكنك بسياراتك الصغيرة قديمة الموديل التنقل من فلسطين إلى مصر دون انتظار جوازات السفر وتأشيرة الدخول.

فاطمة لم يعرف لها تاريخ، كيف جاءت عائلتها إلى فلسطين قبل النكبة، عشرات القصص سردها أولادها عن جغرافية فاطمة.

وهى صغيرة أصيبت بحمى قوية، لم يسعفها فقر العائلة المترحلة من علاجها بشكلٍ سريع، خرجت الحمى من جسدها ومعها عينها اليسرى.

فاطمة قبل أن تتزوج جدي أحمد، كانت عاملة تلتقط البرتقال والزيتون والتين وغيرها من الحدائق (البيارات) في موسم القطاف.

ووقتها كان جدّي حارساً لإحدى الأراضي عند الباشا (جودت الآغا التركي). كل عاملة أو فتاة تعمل معه تحبه، وكان يقطفها كما يقطف البرتقالتين من جسد النساء.

جدتي لم يكن لها أغصان، لم يكن لها عيون خضراء، وشكلها قريب غجرية تصطاد السمك، حين تمارس مهنة القطف، لو رأيتها في تلك اللحظة لشاهدت غجريةً ترقصُ وتتقافزُ كغزالةٍ من شجرةٍ إلى شجرة.

وقبل أن يقطف جدي برتقالتيها، قَطفت لوزة قلبه.

قبل أن تتزوجه، أطلعته على سرْ تاريخها وتفاصيل الجغرافيا الظاهرة في ملامح وجهها البرونزي، ومن أسرار جدتي أنها كانت تملك فتاة صغيرة من رجل قبل جدّي، [ذهب أدراج الريح لم يعد] تزوجا وكبرت بين أقدامهما الطفلة حليمة، وجدتي لم توفر أي فرصة في الإنجاب [حليمة والأولاد والبنات كل يوم يكبرون ويثبتون في الأرض كأشجار التين].

تنقلا في مرات عدة للعمل بين مصر وفلسطين، وعاشت الأسرة في منطقة العريش المحافظة الشمالية لسيناء. هل وجود الكثير من الفلسطينيين في هذه المنطقة يؤكد أن سيناء جزء من أرضنا؟ لا نعلم من سيجيب عن هذا السؤال.

هزم جمال عبد الناصر في النكسة، ولكل هزيمةٍ رجالٌ، وجدّي كان أحد الشهداء، وجد جسده ملقى بالقرب من المعسكرات الإنجليزية في تلك المنطقة.

تزوجت وقتها حليمة من رجلٍ يعيش في منطقة بئر السبع (عرب إسرائيل) وأنجبت أولاداً حملوا الجنسية الإسرائيلية. وباقي العائلة ظلت لاجئة في العريش، وكبرت كأشجار معمرة مثمرة، لكن لا جذور لها في المكان، وانطلق الأولاد يعبثون ويتكاثرون في الأرض كعصافير الدوري البني [مجرد طائر غبي، قبيح الصوت والشكل].

وبعد قرار فصل جنوب سيناء عن قطاع غزة، ووضع السلك الشائك، تسلل نصف العائلة إلى هنا في هذا الحيّ.

والشيء الوحيد الذي أخذه أبي من العريش صورة لجدتي العوراء المجهولة، وبعض القصص عنها، وكأنك تسمع قصة الرحالة ابن بطوطة.

في كل لحظة كان أبي يضع صورة أمه في مكان بارز في البيت، لكن الشيء الغريب أن تجد الصورة تحت السرير، يبدو أن جدتي أصرت على أن تعيش مجهولة في حياتها ومماتها.

ومن حظ أسرتي أن أخي الصغير فرّ من الموت مرةً، كان هو وأولاد الحيّ يلقون الحجارة على جنود يتجولون في الحي، وقتها أمر الضابط الكبير: الجنود بالركض خلف الأولاد.

الأولاد يركضون مثل أغنام صغيرة في الشوارع، يسلقون الفراغ وخلفهم الجنود كذئاب خضراء، بنادقهم تمتص الدهشة من كل النوافذ.

ركض أخي ناحية البيت، وسقط تحت أقدام أبي المتعبة من هذا المشهد، حاول أحد الجنود أن يلتقط أخي عن الأرض كثمرة تين ناضجة سقطت لتوها من فروعها.

لكن الجندي نظر في وجه أبي فابتسم، فابتسم أبي، وانصرف الجندي دون أن يعتقل أخي الصغير، كان الجندي هو ابن حليمة، وظل السر عند أبي بأن أولاد أخته جنود في الجيش الإسرائيلي. وأنا عرفت من أبي في وقت يبوح القلب بأسرار كبيرة جداً لا تسعها آذان المستمعين.

عودة إلى السرير

صورهم الشخصية الكثيرة، ونسخة عن بطاقة التغذية (التموين)، وبعض الأزرار السوداء العريضة المخملية التي تشبه العملة المدورة الصفراء الكبيرة المتبقية من ملابس الأب، تؤكد أنه كان مجرد موظف من عصر السبعينيات، إضافة إلى أعقاب السجائر التي تفوح رائحتها في المكان، وعلى الرغم من كل المنظفات تظل الرائحة تقاوم الزوال ... .

انتقل السرير إلى غرفة مريم لتمارس هموم نومها عليه ... وانتقل المشهد كأنه أرشيف من غرفة الأم إلى غرفتها، يبدو ليس الحديد وحده يمكنه اكتساب صفة المغناطيس، السرير مغناطيس قوي، جرّ الأوراق والقطع والبقايا، كأنه قائد ثوري يمشي خلفه المعارضون.

لو كنت أحد المارة في الشارع في تلك اللحظة، ولحنَ بصرك من بين فتحات الشباك المغروزة قضبانه الحديدية في خاصرته السفلى، المرتفع قليلاً عن تراب الطريق.

(كان الشباك مرتفعاً وشاهقاً، لأن موسم المطر كان يترك بركة من الماء التي تتحول إلى ملعب مائي للأطفال، ثم ردم الشارع بطبقات جديدة من تراب وحجارة منازل قد دمرت من الحروب التي تدور في الأحياء الملاصقة لهذا الحي، لمدة عشرة أعوام متتالية في كل عام متر، ليتضاءل ارتفاع الشباك، حتى نزل إلى خصر المارة، وأصبحت فتحاته شهية للنظر).

شبابيك الحارة كما صورتها بعض أفلام السينما المصرية، أو كما وصفها الكُتّاب في بعض رواياتهم، حيث الشبابيك متنفس للفتيات المراهقات اللواتي يتلهفن إلى رؤية الشباب، الذين تسوقهم الأقدار أو الرغبات المقصودة، للوقوف على مقربة من الشبابيك، التي تطل منها على نحو موارب أو صريح، فتيات راغبات في الحب.

وحيث الشبابيك فضاء ملائم لنساء محشورات في البيوت، يمكنهن من خلالها، أن يسترقن النظر أو يقفن علانية لمراقبة حركة الناس في الأسواق، أو لتبادل الأخبار والإشاعات، وتسعير النميمة مع الجارات اللواتي لا يعرفن كيف يقضين أوقاتهن.
في حيّنا لم يعد الحال هو الحال نفسه كذلك. صحيح أن المزاج المحافظ عاد إلى التغلغل في ثنايا المدينة على نحو ما. غير أن

تحت سطح المحافظة تكمن رغبات وممارسات، نابعة من الطبيعة البشرية التي تتمرد على السائد على هذا النحو أو ذاك، وهي نابعة كذلك من طبيعة المرحلة التي يجتازها الحيّ بغض النظر عن كل الضغوط والملابسات، فثمة تجليات للحداثة بأشكالها السلبية والإيجابية سواء بسواء، إذ تصعب إعادة عقارب الساعة إلى الوراء بنجاعة تامة، وتصعب محاصرة هذه التجليات وضبط تأثيراتها، وبخاصة على جيل الشباب والشابات.

الشبابيك هي الفضاء الذي يجري من خلاله تناقل الأخبار أو تسريب الإشاعات.

في الشارع حيث يتمشى الرجال والنساء في الأماسي العادية، حينما لا يكون الحيّ واقعاً تحت منع التجوال أو الدكاكين المغلقة بسبب إضراب.

هذه الطفرة الطبيعية في العلاقات وفي تفاصيل الحياة اليومية، نزعت عن الشبابيك طابع الرومانسية التي قرأنا عنها في الروايات، أو التي كنا نشاهدها بأم أعيننا في الشبابيك المطلة على تلك الحارة أو على ذلك الزقاق. انكفأت الشبابيك على نفسها،

وأصبحت مجرد فضاء لأداء وظائف أولية صممت الشبابيك أصلاً من أجلها، مثل تمرير الهواء إلى داخل البيت وكذلك أشعة الشمس، أو تمرير شحنة من نور حينما لا تكون الشبابيك واقعة في مدى أشعة الشمس، بسبب اكتظاظ العمران المشوه في الحيّ، ووجود حيطان مغمورة وفيها شبابيك مقموعة لا ترى الشمس ولا تراها الشمس.

مع ذلك، يظل المزاج المحافظ وطلب الستر ودفع الفضيحة قدر الإمكان ورفضها والتطير من وقوعها، حيث السكون الذي يهيمن على الشبابيك، فلا تظهر أية حركة في فضائها ولا أي حضور بشري، كما لو أنها لا تفضي إلا إلى عالم من فراغ.

ولمزيد من الحيطة والحذر، تبدو الشبابيك مزودة بحمايات من الحديد الصلب الذي يتخذ شكل رماح متصلبة في معظم الحالات، ويتخذ شكل زخارف وأشكالاً هندسية بديعة في القليل من الحالات (كل الأشكال تدل على تاريخ يهودي) دون قصد من الناس، المهم أن يستر بيته والمتحكم الفقر.

هذه الحمايات مكرسة لحماية البيت من اللصوص في الدرجة الأولى، وهي تعبير عن عدم الثقة في الشبابيك، حتى وإن كانت

في أحيان غير قليلة، واقعة في الطوابق العليا التي لا يصل إليها اللصوص بسبب الارتفاع الذي يكفي وحده لحماية البيت منهم.

ولعل المزاج المحافظ هو المسؤول عن قلة أصص الورد والأزهار في فضاء الشبابيك. لأن ذلك يستدعي قيام ربة البيت أو بناتها بفتح الشبابيك والعناية بالورد وتعهده بالسقاية وغير ذلك من أسباب العناية والانتباه، ما يعني انكشاف نساء البيت على شبابيك أخرى لجيران آخرين، أو على أشخاص هوائيين يتحركون في الأزقة والحارات (يحفل الغناء العربي بأغاني الغزل التي تتحدث عن الورد وعن الشبابيك، ما يجعل للأمر ظلالاً غير مريحة في نفوس المحافظين).

قد يجري فتحها ساعة أو ساعتين في النهار، ثم تغلق بعد ذلك، وربما لمنع الغبار من اقتحام البيت، وربما بسبب الرغبة في تحصين البيت ولو في شكل غير واعٍ لذلك.

في تلك اللحظة لو كنت أحد المارة في الشارع في تلك اللحظة، ولحنَ بصرك من بين فتحات الشباك المغروزة قضبانه الحديدية في خاصرته السفلى، المرتفع قليلاً عن تراب الطريق.

شباك بيت مريم، المطلي باللون الأخضر، حين تنظر إليها تظن إنها ستسقط أرضاً، وتتكسر كالأسطوانات الموسيقية السوداء ... من التوتر الملحوظ من حديثها مع صديقتها سماح.

لو كنت تحمل جينات المقاوم في لحظة النظر لها، ستخلع الشباك وتقفز لتقول: احذري السقوط!

لكن كل المارة فقدوا ذكورتهم، من الأحداث المتكررة على الحي، من قصف، وأنباء سياسية لا تبشر بخير، كل المارة كرهوا المكان، [لماذا الكره؟ قد يكون سؤالاً بريئاً أو سؤالاً ساذجاً.. أو .. أو لكنه واقعي، شبكة الصرف (المجاري) تتسلل من بين البيوت كشبكة عنكبوت أرملة سوداء].

البيوت متداخلة كلوحة فنان تشكيلي عبثي يرشق الألوان على اللوحة فقط دون تنظيم، تجد غرفة نومك تتداخل في مطبخ جارك، هذا يجبرك على أن تشم كل يوم رائحة طعام جارك.

غرفة نوم الجار ملاصقة للشارع، كل المارة يعرفون متى ينام الجار مع عروسه الجديدة من الأصوات والطرقات التي تفوح بالمكان.

مجبر أن تعلق نظرك على حبال الغسيل المنتشرة بين زوايا الحي، لتراقب ما هو الجديد من الثياب، لا يعلم أهل الحي أن أحبال الغسيل تكشف أسرار الليل، [دون خجل تعرض السيدات ملابسهن الداخلية مفصلة الألوان وكل لون يعكس حدث الليلة].

لكن ليس لهم سوى التستر بظلال جدرانهم المطلية بالطين البني، على الرغم من أن أطراف الحي تعيش بعض مظاهر التقدم المعماري، للسكان الذين نزحوا في السنوات الأخيرة للحي، بعد كل اتفاقية.

اللغة أربعون حرفاً

لا صوت ولا عراك في الحديث المتبادل بينهما، دخان سجائر أبيها المتسلل من عقب الباب، يضفي جواً ضبابياً في رفض مريم شظايا قنبلة الصوت المنفجرة في زوايا البيت (قنبلة الزواج) أن تصل لجسدها الطري، المعتاد على الجلوس فوق مقاعد الدراسة الخشبية.

متعتها حين يحتك جسدها بجسد صديقتها التي تشاطرها المقعد، ليست لأنها فقدت حنان الأم، لكن لطقوسها الخاصة أن كل جسد سيختار الجسد الذي يرتاح بملمسه.

سمعها المتربي على قصص صديقتها الأربعين في الفصل الدراسي الواحد. كانت كل حصة تسمع قصة [شهرزاد والديك وشهريار والسيف والسياف، وكل قصص ألف ليلة وليلة، وثرثرة الأسواق، وحناجر المتجولين في الصباح، وكعك العيد والخروف الصغير، ولعبة الحجلة، وألعاب اليهود المتسللة في الحي (طاق طاقية)، والجنّي الذي سرق الفستان الأحمر عن حبل الغسيل، ورحيل أجمل شاب في الحي، وقصة الغولة التي تخطف الرجال من نسائهم، والكثير من القصص تسمعها في فترة الاستراحة بين

الحصص الدراسية. وعلى الرغم من أن كل هذه القصص خرافات، لكنك تجد من يسردها عليك من التلميذات كأنها بطلة القصة أو الخرافة، وإن لم تكن هي البطلة، تكون الشاهدة الوحيدة على القصة لأنها رأتها...].

كل هذه القصص لا تغني عن الرجل الذي يأتي برداء جديد ينقذهم من هذا الحي، كانت كل طالبة تنقل خبر المذياع عن أوضاعهم، كما يفسرون لهم عائلتهم.

الكل في هذا الحي كممثلين على مسرح مكون من شوارع رملية، تتعثر فيها قدماك بالحصى، وأعقاب سجائر عفنة، وبيوت قصيرة القامة أبوابها من الحديد المخملي (وسبب كثافة الحديد في الأبواب، الخوف الذي ورثة الناس من الهجرة، لو كانت بيوتهم قوية في البلاد، لما سقطت بسرعة حين هاجمهم اليهود في تلك اللحظة) الكل يمثل مسرحية واحدة، ويحفظون نصها بثقة عالية رغم الأمية المتراكم في العقول مثل أكوام القمامة في مدخل الحي.

هم أبطال مسرحية (في انتظار جودو)، والمسرحية تدور حول شخصيات معدمة مهمشة ومنعزلة تنتظر شخصاً يدعى (جودو)

ليغير حياتهم نحو الأفضل. وبعد فصلين من اللغو والأداء الحركي والحوار غير المتواصل، لا يأتي جودو أبداً. المسرحية محملة برموز دينية، هذا غير اعتمادها المكثف على التراث الكلاسيكي الغربي، والمسرحية تعبر بصدق وببشاعة عن حال إنسان ما بعد الحرب العالمية الثانية، والخواء الذي يعاني منه العالم إلى الآن.

والشيء الجميل أن هذه المسرحية كتبها صموئيل بكيت العام 1947، وكان هذا الأيرلندي يتنبأ لكل الفلسطينيين (وكأن هذا النص المسرحي يتنبأ لكل الفلسطينيين) ماذا سيكون حلمهم ما بعد 1948.

مريم وحدها كانت تعيش عالماً خاصاً جداً مع صندوقها الخشبي ذي الحواف المنحوتة بأشكال زخرفية. علمت حين كبرت أن هذا الصندوق جلبه جدها من العمل (داخل إسرائيل)، والأشكال تدل على قصة لمعبد يهودي.

انتشرت في زمن قصير –حوالي عشرين عاماً– أن يعمل الرجال في إسرائيل، وكان من أهم التجارة بين فلسطين وإسرائيل بيع

الخردة (أو ما لا يريده اليهود). كان الرجال يأتون بالملابس والأواني المنزلية والأجهزة الكهربية القديمة الحديثة في كل مخيمات اللاجئين.

والشيء الغريب الذي لا يمكن إزالته من عقول الناس، أن البضائع الإسرائيلية عالية الجودة، بكل صدق، كأس مصنوع في مصانعهم خيرٌ من زجاج الطائرات المصرية.

حافظت مريم على الصندوق، كانت تخفيه من برد الشتاء خوفاً من طمع النار بعظامه (الحي بارد)، والكهرباء كسولة جداً في الأسلاك المتشابكة أسفل المنازل وفوقها ... منديلها الأحمر المرقط بحبات سوداء، ومشطها الصغير، يشاركان المذياع في جوف الصندوق، لا يبث سوى محطة واحدة لقناة لا تعلم ما اسمها، ولا تستطيع الجلوس كثيراً معه في النهار بسبب تداخل الموجات الصوتية لتشوش على المحطة، لكن هناك سيدة تذيع برنامجاً في وقت يهدأ التجسس على الحي، ويمتنع المشبوهون عن إرسال معلومات للطرف الآخر عن ذكور الحي ... (عن كيف تصبحين سيدة مجتمعية؟).

مريم كانت شغوفة بالبرنامج، وتختم سهرتها بأغنية طويلة، كأنها مخدر موضعي يسري بكل الجسد فتنام ويدها تلامس صندوقها.

وقتها لو كان الحلم الذي يجتاحها طبيب جراح، وأمرّ جزاريّ المستشفى أن يقطعوا قدمها أو رأسها عن جسدها لن تشعر بأي ألم وقت نومها.

وقبل أن تغادر غرفتها إلى الطقوس اليومية، كان يودعها المذياع على نغمات (فيروز) ... (صار لي مية سنة مشلوحة بهالدكان)، لكن علاقتها بصندوقها بدأت تتراجع، حين وجدت قطع قماش بيضاء موجودة عن قصدٍ داخله.

وحين سألت أمها عن سبب وجود القطع البيضاء والمراهم الطبية، كان ردها: آثار الدم الأحمر موجود على كل ملابسك، حين تهزين في الليل حوالي وضع القماش الأبيض في مكان النبع ... . ردت أمها: آثار دمك الأحمر موجود على كل ملابسك الداخلية، حين تهزين في الليل حوالي وضع القماش الأبيض أسفلك، حتى لا تتسخ ملابسك.

خجلت مريم من كلام أمها ... وقتها حضنتها، هامسة في أذنها، الأنثى مثلنا، يجهزنا الله لتبادل السؤال، القماش في هذا الوقت يمتص سائلك، لكن في قادم الأيام سيمتصك الجلد الخشن.

أدرك مريم التخيل وقالت بسرها: المرأة بطبيعتها تنجذب للرجل أيًّاً كان، لكن هناك تفضيلات، أنا شخصياً أهتم بالدرجة الأولى بالجسد. هل هو طويل، أو متوسط الطول، أفضل الجسد العريض وليس السمين. رفيع القامة ومتماسك، بمعنى آخر جسماً مشدوداً ... يعني ليس مترهلاً أو متكرشاً، له عضلات أو لا .. مسألة نسبية، أهم شيء يكون مشدوداً.

كتفاه معتدلان ورافعان حالهما، وبخاصة عند الجلوس. أنا أكره الرجل المتدلي!!

بشكل عام، الجسم الرياضي مفضل عن غيره. من الأمور المثيرة جداً الذقن (اللحية) إن كانت خفيفة أو كثيفة، مصفوفة أو معوجة، كلها بتجنن.

كما أن رائحة الرجل فيها سرٌ ... المهم رائحة مميزة ومثيرة، وهنا لا أقصد العطور، وأيضاً لا أقصد رائحة العرق ... أنا شخصياً انجذب لرائحة جسد الرجل الطبيعية، وأيضاً أفضل المتطيب.

الصوت وما أدراك ما الصوت، كثيراً يتأثر بالصوت، وبخاصة ذا الطبقة العالية، مثل صوت محمود درويش، ولا أحب أبداً الصوت الرفيع المتغنج.

يجذبني أيضاً شعر الصدر ... لكن لا يكون بنفّر أو كثيف كشعر صدر القرود.

أهتم أيضاً بالمشي .. على فكرة مثيرة خطوات الرجل لو نظرتِ له من الخلف يدهشك لو استغلها الرجل بشكل صحيح.

طبعاً أهتم بالوجه، لكن في الدرجة الثانية. هذه هي الأمور التي تفتن من الناحية الجسدية، وهناك خيط خفي لا تلاحظه إلا القليلات.

هل هو مثيرٌ أو باردٌ، طبعاً لا يُرى ذلك إلا من خلال العيون!

لم يمضِ سوى أسبوعين على انتهاء الامتحانات، ومشهد الأوراق البيضاء التي تحول شوارع المدرسة إلى وجه ثلجي، راسخ في ذهن مريم إلى أن تنتقل لعام جديد، وما زالت حبات عرقها المدرسية من حمل الحقيبة المكتظة بالكتب والدفاتر المختومة بختم كرت التموين، تستطيع عدها، وخلع فستانها الأزرق وتعليقه خلف الباب.

انتظار إعلان النتائج، لتدخل عالماً جديداً، حياة تزقزق بألوان دونَ اللون الأزرق المخطط بالأبيض ... كل هذه المشاهد التي كانت بالنسبة لها جيش سيدافع عنها، وقت الحاجة، قفزت، حين انفجرت قنبلة الصوت، من الشباك الأخضر، تاركة مريم تعرق في ظلالها المتشابكة من الطين والأغصان الجافة.

[الصديق المزيف كالظل ... يمشي ورائي عندما أكون في الشمس، ويختفي عندما أكون في الظلام].

جبران خليل جبران

كان الحيّ يمتاز بشوارع صغيرة ملتوية، كمروحة الماء، تخيل أن هناك سيلاً قوياً من الماء، هبط على هذه القطعة، حفر الأرض بشكل عشوائي.

من بعيد وأنت تركب الحافلة القديمة، المتجهة إلى ناحية الحيّ تتصور لك البيوت والشوارع، كملامح وجه سيدة عجوز تنظر إلى السماء بفمها المفتوح المنتظر حبات المطر، لتطفئ تشققات حلقها من لغة الهروب والبحث عن الآمان.

وقد سكن أهل هذا الحي في العشوائي الأبدي. لكن الغريب إن هناك درجاً أصفر عريضاً موجوداً في نصف مساحة الحيّ، حتى لو كبرت في الحجم، يظل الدرج أكبر منك وأوسع من الفتح بين أقدامك، صار الدرج عنواناً مهماً.

أي شخص لو أراد أن يقابل شخصاً، يخبره: انتظرني عند الدرج الأصفر، لو طفل تاه من أهله أول مكان تفكر فيه الدرج. ولو أردت أن تعارك جارك وتضربه على ما سببه لك من الأذى من مجاريه التي احتلت غرفة نومك، تفكر بالدرج. بائع السمك (سمك

السردين) يقف في وقت محدد ويوم محدد وكمية محددة من السمك، يقف تحت الدرج، يركض الناس ليشتروا صغائر السمك.

الأعياد والموت تحت الدرج، والشيء الذي كان يُغري مريم، أن تظل واقفة بالقرب من الدرج دقائق تسرقها من المشوار المرسلة إليه، كان يحضر بعض رجال الحي أو نسائه يرفعون أيديهم إلى السماء بواجهة الدرج (يدعون إلى الله).

كان الدرج طولاً يغرس مُقدمتهُ في زرقة السماء.

على المصطبة الأخيرة من الدرج تجلس سيدة، لا يمكن لأحد أن يقول عنها مجنونة أو عادية، تجدها نظيفة جداً ورائحتها طيبة، وتجدها في لحظة تحولت جيوب فستانها إلى حاوية للقمامة، في جيوب صدرها تخزن البرتقال، أوراقاً ملونة، شمعاً، خبزاً، راديو صغيراً، قداحة وعلبة سجائر، هذه السيدة مجنونة الحيّ.

تمسك بيدها فوهات رصاصات فارغة، تلعب بها، وحين تغضب من أحد تلقيه بالشتم والفوهات الفارغة.

مئات القصص نُسجت عن هذه السيدة، وأكثر القصص صدقت عنها أنها قتلت سيدة يهودية، حين كانت تعمل خادمة عندها في البيت.

وبعد أن دخلت في السجن أصيبت بهذا الهذيان.

السيدة تشبه قصة مشهورة جداً، قصة الجثة والنهر، يقال: في الصباح وجد أهل قرية جثة تعوم فوق النهر، ذهل الجميع من مشهدها، لأنهم لم يروا ميتاً بغير الطريقة التي اعتادوا عليها.

بدأ الجميع يحلل ويفسر سبب الموت، قالوا وحللوا وفسروا كثيراً، لكن الجثة ملت من الانتظار، مضت مع النهر بعيداً إلى قرية بعيدة أيضاً.

وحين تهزها حالات الجنون تقف فوق مصطبة الدرج العلوية، وتبدأ بالخطابة. لو كنت في أسفل الدرج، ورأيتها وهي تفرد يديها في الهواء، لشعرت بأنك في مسرح روماني.

وفي يوم كانت مريم تمر بالقرب من الدرج، فمسكتها المجنونة من طرف فستانها، حاولت مريم الخلاص لكن رغبة مريم والمجنونة لهذا اللقاء، جعل مريم تتسمر في تلك اللحظة.

همست في أذن مريم وقالت:

عندما تفشل في الاختيار ما الذي تفعله؟ عندما تدرك أن الشخص الذي اخترته ليكون قلبك وفي حياتك كل شيء يخذلك، ماذا الحل؟ عندما يرفض ذلك الشخص أن يكون قريباً منك مع علمه بحجم حبك الكبير له، كيف تتصرف مع كل ذلك الجمود العاطفي الذي تعيشه؟ ستتعب حينها وتحاول مرة تلو الأخرى أن تستميله لك، تستعطفه، تتصرف بحمق أحياناً لتكسبه ولكن إلى متى؟

إلى متى تظل أسيراً لمشاعر تنحدر بك للأسفل، وتحقرك أمام ذاتك، تشعرك بقلة الحيلة والضعف؟

هل تملك القرار؟

هل تتجرأ لتحرير نفسك وفك أسرك وتفعل ما يجعلك حراً طليقاً بمشاعر ورثت لك الذل والعار.

سأفعل ذلك، سأتحرر بعد أن أنهي هذا الذي أكتبه من كل شيء، وسأنسى حبك الذي أشعرني بالهوان، رغم أني كنت أهرب منه إليك.

سأنسى وأنسى وأنسى، سأنسى حبك، سأنسى حياتنا، سأنسى قلبي، وسأمضي، أمضي إلى حيث الأمان، إلى صحارٍ جرداء، إلى دنيا بلا مشاعر وأحاسيس لكي أرتاح، فدنياي لم تعد تعترف بالحب، ولا بالصداقة، ولا بأية مشاعر أخرى.

هل تظل ترضخ لكل ذلك الضغط وتظل تحلم بالحب والحياة؟

ستشعر حينها أنك في عالم آخر، في دنيا غير تلك التي حولك، وستتعب حتماً، وتظل تحب، وتصدم حتى تتولد عداوة بينك وبين الحب – ذلك الشعور الرائع الذي أودعه الله في قلوب البشر.

فإلى متى تظل تشوه الحب في داخلك بسوء اختيارك، ببحثك الدائم عنه، بحياة وهبتها للحب ورفضت أن تهبك إياه؟

إلى متى تظل تتخبط وتخطئ وتسيء الاختيار؟ قل ليّ يا قلبي، يا من تعب من كل شيء، من ضعفه، من احتياجه، من قسوة الأحباب، ومن فراق من أحبهم.

قل لي كيف أنصفك وتنصفني؟ قل لي متى سترتاح وتريحني؟

متى ستكون كلمتك هي الأخيرة، وتحلق دون أن تعكر صفوك أية أحزان؟

متى ستجعل لساني ينطق أحبك وهو آمن، وسعيد، ومنتشٍ مع من اختاره ليكون الحبيب؟

متى تجد الحبيب، وتجد الصديق، وتجد الحياة التي بحثت عنها طويلاً، وفي بحثك عنها خسرت الكثير وودعت أحباباً، وودعك أحباب، وفرقت بينكم مسافات وعادت جمعتكم صدف، أناس ما زلت على أمل أن تلتقي بهم، وأناس ترفض أن يجود الزمن يوماً بهبة وتلقاهم، وأغلى أحبابك فارقتهم رغماً عنك، ولم يعد للزمن أي فضل كي يعيدهم إليك بعد أن رحلوا، ولم يظل منهم إلا لوعة رحيلهم المر الذي يشقيك كلما مرت ذكراهم بك ... .

قل ليّ كيف ستمضي حياتك؟ كيف ستحب في المرة القادمة؟ بعقلك أم بدقاتك، بضعفك أم بقوتك، بطيشك أم بحكمتك، بجهلك أم بعلمك؟

لن تجد إجابة، فقد تعود غداً أو بعد قليل لحب قديم، أو لتبادل متجاهلاً حباً آخر، أو قد تقع بعد ثوانٍ في حب جديد لتبدأ رحلة المعاناة، وغرق آخر.

فلم أعد أصدق كل وعودك يا قلبي، فلا داعي للأحلاف، والوعود، والساعات القادمة ستمحي كل هذا الكلام.

وستعود للحب، ستعود لأنك بلا حب ستموت، وتعود لحياة لا أمل فيها ولا لذة. ستعود لتعشق، تحلق، تحلم، وتحب، وستعود الحياة لك، وستعيدني معك للحياة التي لا تستهويني بلا حب، لا تستثيرني، لا تعيشها، لا تجلل فرحاً وصخباً وغناء، لا تعود حياة. لا تجلل فرحاً وصخباً وغناءً، لا تعود حياة بلا الحب هذا المخلوق السرابي الذي نلحق به ولا نتذوق طعمه في هذا الحي.

مرت هذه الكلمات على مريم بسرعة رغم طول جملها، ولا تعنيها هذه الجمل، كانت جميلة ترق في قلبها، كانت الكلمات تشبه الرقية التي تسمعها من أمها حين تصاب بحمى البلح.

قبل أن تغادرنا كان من حق مريم أن تتخيل قصتها، فقالت: أكيد كان لها حبيب وقتل بالرصاص.

سماح هي بنت إحدى العائلات الجديدة التي فقدت إقامتها من دول المغرب، لتجرها خيول حلم الإقامة (جوازات السفر) إلى خارج الحدود، ومن ثمة إلى الحي.

يتعارف أبو مريم بأبي سماح، في إحدى جلسات المكاتب التنظيمية، لأن أغلب رجال الحي ورثوا التنظيم والمكاتب التي تعج بصوت الأحذية وشهيق الدخان، وصور شهداء الثورة المعلقة فوق كل المداخل، وبقايا السلاح وقصص البطولات لكل واحد منهم.

كان أبو سماح بحاجة لصوت أو لصديق يثبته في الحي، لأن عواصف الأحياء لا تقتلع الأشجار فحسب، لكنها تخلع الرجال بتهم مفصلة لهم، لتجد الكثير من الجثث ملقاة على ناصية الأحياء، والتهمة أنه مشبوه، أو يدخن سجائر أجنبية، أو تغزل بفتاة من المخيمات المنتشرة كقناديل البحر فوق خارطة الأرض.

دائماً لا بد أن يكون بجانبك صديق من أحد المكاتب التنظيمية، حتى لو أردت أن تكسر بيضة، سيصفق الرجال وتقف خلفك وتقول: إنه أطلق صاروخ ... .

الرجلان في صورة واحدة، والبطاقات متشابهة، فلا بد من زيارة والدعوة على الطعام والحديث عن أوضاع البلد. الرجلان (أبو مريم، وأبو سماح) متشابهان جدا،في نوع الدخان، ولون بطاقات التعريف الحمراء متشابهان (أقصد هنا أن لون البطاقة الحمراء في ذلك الزمن، هذا اللون يؤكد أنك لاجئ.

التشابه والتطابق بين الرجلان زاد الصداقة، فلا بد من زيارة والدعوة على الطعام والحديث عن أوضاع البلد، في أحد بيتي الرجلان.

الزوجتان كل منهما يتبادلان طريقة إعداد طبق العدس: على طريقة الحي، وطريقة بلاد المغرب ... .

كانت هذه اللحظة التي تقابلت مريم مع سماح. دعتها إلى غرفتها، بعد أن هشت أخوتها الصغار وأغلقت الباب، جلبت الصندوق، وأفرغت ما بداخله أمامها، وصارت تروي لها: لماذا تحب هذا المنديل؟

لكن سماح التقطت قطع القماش البيضاء وسألتها عنها، بعد أن أخبرتها عن تبادل السوائل. ضحكت سماح بصوت عالٍ كتمته بسرعة، لأن ثقوب الغرفة منتشرة من السقف إلى الأرضية الأسمنتية.

- "أنت موضة قديمة أنا استخدم شيء جديد ...".

عرفت وقتها أن العالم يتطور لأجل هذا السائل ... .

رغم الخطط والسواتر الرملية المصنوعة من الخيش، المرصوصة على السرير والشباك الأخضر، وتفكير سماح، وعصر كل خِبرتها من العيش في بلاد غير بلادها، لتصدا شظايا تلك القنبلة، كانت الشظايا كثيرة كغيمة تمطر وأنت وسط الشارع لا بد أن تتبلل، وتلعن المطر. لمساعدة مريم في التصدي لشظايا قنبلة الزواج الذي انفجرت ورست في ثغرات جلد مريم، كانت الشظايا كثيرة كغيمة تمطر وأنت وسط الشارع لا بد أن تتبلل، وتلعن المطر. ففشلت سماح أن تساعد مريم.

استسلمت مريم وأخرجت قطع القماش البيضاء من الصندوق، ووضعتها في جيبها ... وحين بدأت تفاصيل الفرح، والزغاريد تشق طبلة الأذن، والعصير الملون الذي سبح فيه الضيوف، والأطفال كسروا أغصان الأشجار من الركض خلف بعضهم البعض، اختفت سماح طوال هذا اليوم .. سألت عنها كل النساء، وحين كانت تتزين وتنتف شعرها من جلدها، مع كل ألم تأكدت أن سماح لن تعود.

استسلمت مريم لفكرة الزواج، وأخرجت قطع القماش البيضاء من الصندوق، ووضعتها في جيبها ... وحين بدأت تفاصيل الفرح، والزغاريد تشق طبلة الأذن، والعصير الملون حلو المذاق الذي سبح فيه الضيوف، والأطفال كسروا أغصان الأشجار من الركض خلف بعضهم البعض، والنساء التي ملئت ساحة البيت الصغير، تفاصيل ليلة الفرح...

كانت النتافة سيدة سمراء ثقيلة الوزن، حكمت جسدها دون حراك، وبعد مرات من عملية نزع الشعر، تخدر جسدها، لم تشعر كيف

تحول جسدها من فتاة إلى امرأة بالغة حليقة الشعر، ناعمة الملمس.

وقت الخدر كانت تتذكر شكل الرجل الذي سيمتصها ... رأته مرتين، كان في المرة الأولى شاباً أنيقاً يردي قميصاً أبيض، وبنطالاً أزرق غامقاً. حذاؤه يلمع رغم انقطاع الكهرباء في وقت زيارته الأولى لبيتها ... لم يجلس معها، لكنه اكتفى بالسلام عليها.

غاب أكثر من شهرين حتى عاد للزيارة الثانية، كان أشبه بالأشباح، يضع على كتفه بندقية سوداء، حذاؤه مغبر رغم أن الشمس كانت ساطعة في ذلك اليوم.

النوافذ المغلقة

كان صغار الحي يتشابكون حول الشباك الأخضر، يراقبونها وهي تجر جمالها البسيط، شالها الأبيض يرتاح على طرف السرير. أطرافه الطويلة تغطي بلاط الغرفة كأن الغيوم تتلاعب عليه.

مع طرقات على الباب، جلست كأن قلبها توقف عن الضخ في صدرها ... صوت أبيها: هيا يا عروس العريس جاء ... .

حضنت أمها (لماذا لحظات التحول في هذا الحي تخيفها، رغم أنها لا تعرف ما ينتظرها)، بدأ دمعها ينزل، لكن كل النساء في هذه اللحظة أخرجن مناديل، من جيوبهن.

- بصوت خافض: امسحي دموع الفرحة يا مريم. (يبدو أن النساء كلهن في هذا الحي يبكن يوم الزواج).

فُتحَ باب الغرفة، أمسك يدها وشدها إلى ساحة البيت. كان ينتظرها في سيارة من سيارات المخيم، قد ركبتها فيما قبل في أحد مشاوريها، (حتى في يوم تظنه مميزاً في هذه اللحظة، يا مريم

تركبين السيارة التي أوصلتك العام الماضي للمقبرة في يوم الشهيد).

[كلما تقدمت جدران الحي في العمر، تصبح كلمة شهيد مجرد كلمة عابرة، مثلما تقول مدرس، نجار، عامل نظافة، بائع مواد التنظيف، كلمة شهيد تشبه طعم الحلوى ونحن صغار، نحبها ونتعارك للحصول عليها، وحين نكبر نخاف منها لأننا ندرك خطورة مرض السكريّ، الشهيد الأول في الحيّ كلنا نعرفه ونسمي أولادنا تيمناً به، ولكن من روتين الاستشهاد في البلاد، يمر آلاف الشهداء دون الانتباه لهم بالدعوة أو توزيع الحلوى على أرواحهم].

أغلق السائق الأبواب، وبدأت الطريق تبتلع بعضها البعض، كان يجلس مبتسماً كطفلٍ وديع ينتظر أمراً ما ...

كان يشبه اليوم الأول الذي رأته حينها، كان أنيقاً، ربطة العنق لم تكن حمراء، أمسك يدها وضغط، خافت لأن كل قصص السجان في المعتقلات التي يتلوها المحررون، جاءت تدور في رأسها كبيان، بخط أسود عريض، (سجان الزنازين) (سجان الخيمة)...
.

حاولت أن تنفض رأسها لتغادرها الصورة، لكن الصورة كانت كغراب ينعق في بياض عيونها، الغراب نقر ونقر حتى عشش في عينها.

حاولت أن تبتعد عنه، لكن المقعد الخلفي كان صغيراً ولا فرار من اللمس، مع موسيقى بوق السيارات التي تضفي على الجو غباء من الإزعاج ... اصطنعت ابتسامة، لتجامله، لأن وصايا الأم ما زلت توشوش في أذنها، (لا، لا، لا، ....). كأن كلمة لا خلقت لنساء هذا الحي ... .

لماذا موكب الزفاف يشبه موكب الموت في نظرها، السيارة التي في الخلف كلها سوداء وقديمة. الدخان المتصاعد من خلفها يجعل النهار أسود برائحة تكسر الأكسجين في الجو، في لحظة، دخلت سيارة جيب قديمة تجعر من السرعة، عليها بعض المسلحين حاولوا أن يسبقوا سيارتها.

- سألت مريم ووجهها شاحب: ما هذه السيارة؟ ولماذا تفعل ذلك؟

- لا تخافي هؤلاء أصدقائي في العمل، يحاولون أن يمازحوني، ويقولون إننا موجودون.
- وما هذا العمل الذي يقوده مسلحون؟
- نحن نزرع قلوبنا فوق أطراف الحي، لا نسمح لأحد أن يتعدى علينا.

(سكتت، وهي تنظر إلى سيارة الجيب، لماذا أي عملٍ في هذا الحي لا بد أن يخيم عليه السلاح؟)

صار المسلحون، يطلقون النار في الهواء بالقرب من النافذة التي تجلس بجوارها، اهتز جسدها من الخوف (حين يموت أحد في الحي يطلقون الرصاص، وحين يزف أحد يطلقون الرصاص، غريب هذا الحي، الموت والحياة رصاص).

إذا كان الرصاص هو مقدم حياتها، لأنها ترجف من الأسئلة التي سوف يحيكها لها، وهي في غرفة النوم الجديدة التي لم تدخلها أبداً ... لكن بعض أمتار عدة سوف يلقى جسدها كحمامة بدون ريش جاهزة للطهي.

رددت مريم في سرها المرتجف، إذا كان الرصاص هو مقدم حياتي، وأنا أرتجف من حياتي المنتظرة التي سوف يحيكها ليّ

الزمان، هل غرفة النوم الجديدة التي لم أدخلها أبداً كيف سيكون طعمها... لكن بعض أمتار عدة، سوف يلقى جسدي كحمامة بدون ريش جاهزة للطهي. رددت هذا الكلام مع خوفها من صوت الرصاص.

نظرت له، كان مشغولاً بإلقاء التحية على أصدقاء الجيب، سعلت، لكنه لم ينتبه. أحبت أن تسأله، كيف تريدنا في حياتك؟

امرأة عادية، امرأة بسلاح، امرأة دون نوافذ، قبل أن يخرج السؤال من فمها، ليرسو بين أذنيه ... تذكرت كلام سماح، عن الزواج في هذا الحي.

من كلام سماح: هل أنت بكر؟ لا تخرجي دون إذن مني حتى لو مات أبوك. لا بد أن تظل النوافذ مغلقة. لا تنشري ثيابك الداخلية خارج البيت. (جبل الغسيل ذكر، وباب البيت ذكر، والشارع ذكر، والرصيف ذكر...).

أي ألوان من ملابسك الفضفاضة لا بد أن تكون سراً، وحين تخرجي معي لا بد من لباسٍ كامل أو تضعي خماراً، لا أريد أن

يراك أحد دوني. أحب العشاء باكراً، لا أحب الخبزَ البارد، أحب الطعام حاراً، ثيابي دائماً جاهزة، أدوات الحلاقة يحب أن تكون في مكانها، حذائي دائماً لامع، لا تسأليني أين سأذهب، وأين كنت. المعاد المناسب للمضاجعة حين أريده، لا بد أن تكوني يا مريم مثل الحمامة دون ريش طوال الأشهر الأولى.

حتى يتأكد الرجل من أن حيواناته المنوية استيقظت داخل رحمك، لأن الرجل يظن أن رجولته في هذا الحي، حين ينجب ولداً، ويكبر وبيده السلاح.

هذه كلمات سماح، لكن الشيء المدهش، كيف عرفت تفاصيل الحي بشكل سريع رغم أن أقامتها قصيرة ولم تتعدَّ العام الواحد.

وقف الموكب أمام خيمة من النايلون الأزرق، والنساء يتصارخن مع حواف آلة الطبلة، ترجل من السيارة، ليتجه ناحيتها. أمسك يدها وقادها إلى الخيمة، وحين وصلت إلى مدخلها، ألقت النساء الملح، كنت تغني بصوت منزعج، وتدق على الطبلة لتراقص الخوف داخلك ... . كانت تغني النساء بصوت مزعج، وتدق على الطبلة لتتراقص، صوت الطبلة كصوت كسارة صخور

الجبال، الخوف داخلها زاد كأنها حبة بندق صغيرة تحاول الهروب من الأفواه الجائعة ... .

نظرت مريم حولها وعلى الخيمة. تأكدت من أن مثلها ومثل أهل الحي ستظل الخيمة تلاحقهم، في موتهم وأفراحهم وحتى في سكنهم ... وللصدفة اللون الأزرق هو دليل على أن بطاقة التغذية غيمة زرقاء ستطاردك طوال عمرك.

النساء يدُرن خلف بعضهن البعض، ثيابهن تلمع، الماكياج صارخ، يبدو أنها فرصة لكل سيدة أن تضع المكياج خارج بيتها.

هناك جزء لا يشارك في الرقص ولا في التصفيق، بدون شك إنهن نساء ثكلى، إما زوجها مات، أبو ابنها مات، أو ابنها أعتقل في سجون الاحتلال أو جارها مات. الموت في هذا الحي مجاني، ككابونات التغذية.

صارت تراقب كل الحضور من النساء، علها تجد وجه سماح، البنات الصغار تشاطر مريم كرسيها بالجلوس.

لو سألت مريم كم مرة رقصتِ في تلك الليلة، ستجيب أنها رقصت مرتين، مرة مع حماتها، ومرة مع أمها، لكن عريسها كان خجولاً.

مريم تراقب وتراقب كل التفاصيل، لاحظت أنها رأت هذا المشهد من قبل، بعد أن عصرت ذاكرتها، تأكدت أن شكل هذه الليلة وملامحها تشبه ملامح أي ليلة زفاف في هذا الحي، وكان وجه الشبه واضحاً من الأنوار المستعارة في كل مناسبة، الخصوصية تجعلك تعيش في روتين لا اختلاف من زفاف إلى زفاف ... .

بقي جزء قليل من النساء، لم يشارك أبداً في مراسيم الخيمة الزرقاء، مالت على أمها وسألتها:

- لماذا هؤلاء النساء (وأشارت بإصبعها إليهن) لا يشاركن النساء؟

ردت الأم:

- هؤلاء النساء زوجات حراس الحدود، وهم أصدقاء عريسك، يغارون عليهن، ولا يريدون أحداً في الحي يقول إن نساءكم رقصن في الزفاف ... يصفون أنفسهم بأنهم ملائكة لا يخطئون ... .

قبل أن يكتمل الحوار بينها وبين أمها، جاءت مجموعة من النساء يحملن طبلة، فوقف العريس ومسك يدها فوق الجميع ليمشيا خارج الخيمة، تأكدت أن ليلتها انتهت وأنها ستذهب إلى البيت.

على باب الخيمة يقف مجموعة من الرجال منهم أبوها، ووالد سماح، كلهم كانوا مبتسمين، وأصدقاء الجيب، يرفعون السلاح، فأطلقوا رصاصات في الهواء، فانطلق الصغار يجمعون الفوهات الفارغة النحاسية.

بالطبع الجوع والفقر يعلمك مهنة بيع النحاس والألمنيوم، لذلك الناس تحب الدمار والحرب، لما يتركان من وليمة لهم.

يحبون أن يصابوا لتكثر عليهم المساعدات. كل رجل في هذا الحي يتمنى أن يموت لهم شاب من رصاص الغرباء، ليحصل على راتب شهري، الأفواه مفتوحة والكل علمنا كيف التسول وأنت ترتدي ربطة عنق.

كانت المسافة قصيرة بين الخيمة الزرقاء وبيتها الجديد، لكن الرجال، وأصدقاء الجيب الأسود، انطلقوا يسلمون على رجل كان يقود سيارة بيضاء مكتوب عليها حرفان (UN).

كلهم يحجزون عيشة رغدة لعائلاتهم من وراء هذا الرجل، إنه مسؤول شباك التغذية، ولو أحب أحداً من الرجال، الخير سيعم عليه، وحتى لو مات أحدهم سيهتم بعائلته كثيراً. [تبادل مصالح].

كثرت على هذا الرجل (رجل التغذية) قصص أنه يتحرش في النساء، لكن لا أحد انتفض وقدم له أي تحذير، المهم البطون تمتلئ.

عريسي ابتسم له ابتسامة عريضة، حين سلم عليه وضع نقوداً لونها خضراء غامقة في يده.

وسرعان ما أجلسوه على أفضل كرسي، وجلبوا له مشروباً بارداً.

هذا الجرح له متعة يا أمي

دخلت مريم وعريسها البيت، وخلفهم مجموعة من نساء الزفاف، أمها وأمه، خالاته، عماته، ونساء كبيرات في العمر، السيدة معزوزة الدّاية، وأختها المشهورة بتدليك الجسم.

أغلق الباب، جلسن في البهو، يحملن أكياساً وطعاماً، أدخلتني إلى الغرفة المخصصة.

دخلت أمي خلفي، فكت أزرار فستاني، وخلعت عني الوشاح، بدأ جسدي يتعرى أمام أمي وبعض النساء الفضليات اللواتي ينتظرنَ في الغرفة. ثم يخرجن متمتمات بآيات من القران، دخلت الداية معزوزة وتحمل معها البخور، ودارت في الغرفة.

وقتها سعلتُ من الدخان، قالت بصوت مخيف: خرج الشر... خرج الشر، كل دقيقة أتعرى من قطعة من ملابسي، حتى ألبستني أمي قميصاً قصيراً شفافاً.

في لحظة شعرت بأني سباحة في بركة مياه، وآلاف من الرجال تراقبني، أمي والبخور خرجا من الغرفة.

دخل هو ليفك أزرار تعبه، ويلقى تفاصيله على بلاط الغرفة، يعض على شفتيه كلما نظر إليّ.

رائحة العطر [الكالونيا] فجّر أكسجين الغرفة، لو كنت دقيقاً في الشم لا وجود للهواء هناك، سوى رائحة الجنس التي تنبث فوق ذراعيه..

رائحة العطر [الكالونيا] فجّر أكسجين الغرفة واحتل هواء الغرفة، لو كنت دقيقاً في الشم في تلك اللحظة، لن تشم سوى رائحة الجنس التي تنبث فوق ذراعيه والكالونيا العطر الوحيد المتوفر عند العطارين في هذا الحي..

هذا ليس بخوراً، إنه دخان قوي مخدر، شعرت وقته أني بحاجة للنوم، لكن من العيب أن تنام العروس في ليلتها.

جلست في تلك اللحظة على أطراف السرير، اكتشفت بأن الأسرّة تتشابه، في كل مكان، لأن نجار الحي لا يهتم بالشكل والجمال،

المهم أن يخدم السرير طويلاً، تجد آلاف المسامير تنخر في أخشابه.

تقدم إلى ناحيتي، بعد أن ارتدى قميصاً واسعاً، وظهرت تفاصيل وجهه، كان خائفاً، قلقاً، حين ارتخى عليّ.

صار يتقلب فوقي كدجاجة شواء فوق النار، لا يدرك من أين يبدأ، وكيف ينهي. كان يشهق نفساً عميقاً، ثم يكتمه، كأنه تمساح في نهر، لا وجود لجسده إلا عينيه تبرز في وجهه، تتحركان في كل اتجاه، حرّك المساند والغطاء وكلما وقع على الأرض أسرع وجلبه.

في لحظة تعريت، دون قصد، حزنت على تعبه الذي زلزل فضاء الغرفة، ساعدته في أن يقترب من لزوجة الطين، كان فأسه قد تهيأ لحصد جذور القمح من هذا الطين.

كان يشبه طائرات الحروب بالصوت العالي، يعلو ويهبط كأنه يبحث عن هدف يقصفه.

لكن الأشياء تبحث عن بعضها البعض، لو أن الغيوم سالبة الشحنة تجذب الغيوم موجبة الشحنة ما كان البرق ولا الرعد، وبعدها يأتي المطر ليبلل الشوارع ويزيح الغبار عن النوافذ المغلقة منذ قديم الزمان.

هذا المطر الذي سال من بين قدمي بلونه الأحمر، كان يغري كل تفاصيل الحياة داخلي.

كنت أخبئ هذا السائل عن الشوارع، عن حكايات الاهتزاز، كنت محاربة لدرجة الموت للحفاظ عليه، لكن طائراته كانت سريعة جداً فقصفت قدمي وسال الدم..

قبل أن يرتخي ابتسم، كنت وقتها أضع قطع قماش بيضاء بيدي كما أوصتني أمي، كشطت الدم، فحمل الفوطة وراح إلى النسوة ليقول بأن فأسه أقتلع جذور القمح.

زغردت النساء، ولتشهد أني أصبحت امرأة، الكل كان شاهداً على صورتي وأنا مثل حمامة عارية من الريش.

خرج من البيت، ليعلقها أمام الباب، فسمعت وقتها صوت الرصاص في كل مكان.

دخلت النساء الغرفة، وقبلتني كل واحدة مئة قبلة، هل لا تكفي القبل من المعركة الأولى؟ لكن في هذا الحي يبدو أن موسم القبل جاف، والكثير يبحث عن لحظة مناسبة ليستظل تحت ظل قبلة واحدة حتى لو كانت من مثله.

همست أمي:

- حافظي على القطع البيضاء، هذا شرفك، أنت الآن دخلتِ عتبات تبادل السوائل.
- هذا هو يا أمي تبادل السوائل الذي كنت تخبرينني عنه حين وضعت القطع البيضاء في صندوقي.

أبحث عنك يا سماح

لأن وجهه زاد غباراً، وأطلق لحيته، وشاربه كث إبري، كان يقول: إن أغلب عظماء البندقية عرفوا بلحيتهم، ويتخلل بندقيته الصدأ أكثر فأكثر يوماً بعد يوم، وطوال اليوم يكون مشغولاً بوضع الزيت (القار) في فتحاتها، ويعد الرصاص واحدة تلو الأخرى، ويضعها في صندوق فاخر، بالقرب من فستان الزفاف.

في أول أيام زواجنا كان مهتماً بألوان ثيابي الداخلية، ويحفظها، وكل لون عنده له طقوس خاصة على السرير. أذكر مرة سألني عن اللون الأحمر: لماذا لم ترتده من زمان، وقتها رددت عليه، إنه تمزق ... فذهب إلى السوق وأحضر لي مجموعة من الألوان الجذابة.

لكن هو الآن مهتم جداً بزينة محراب البندقية، رغم أنه كان يلمح ليّ بأني محرابه الأول والأخير.

زادت المسافة بيني وبينه حين استلم جهاز لاسلكي وأصبح له نداء خاص، طوال الليل والنهار يستمع لنداءات.

أشعر أن جدران منزلي كلها تشوش، كلها تحمل أسراراً جديدة لم أتوقعها أن تحوم بيني وبين سقف المنزل.

لا أعلم أين أنت الآن يا سماح، كل الصديقات في المدرسة حضرن مع أمهاتهن ليقدمن التهنئة ليّ، إلا أنت لم أركِ، مر عام طويل. أنا مشتاقة لأخبارك ومغامراتك في السفر، والقصص الحمراء التي كنت ترويها، كنت أظن أنك تقولين كلاماً عيباً، لكن ماذا يحدث في عالم الزواج هو محيط يبتلع كل قصصك ومزحك المضحك عنه.

هل يا صديقتي مارست تبادل السوائل مثلي؟ لو كتب لنا الله أن نرى بعضنا البعض قبل أن تصعدي سلم الزواج، سأهمس بأذنك كلمة واحدة: الرجال لا طعم لهم ولا رائحة فوق السرير.

رغم أننا لم نقضِ وقتاً طويلاً معاً ... أعترف بأنك صديقتي القريبة لقلبي، وفكرت أن أكتب رسائل وأطويها، أضعها مع أمي وأوصيها حين تراك أن تعطيك إياها، لكن خوفي من أن تقع رسائلي بيد أبي، قررت أن أحتفظ بها بصندوقي، بالقرب من المذياع الذي

تعطل تماماً، ومنديلي المرقط، وقطع القماش الأبيض التي لم أستخدمها، لأنك أرشدتني لأستخدم النظام الجديد للبقع الحمراء، لكن هو لا يهتم بأمري، المهم أن يلطخ جلدي وقت ما يشاء بشهوته، ولا يعنيه النهر الجاف بين أقدامي.

سماح، مرّ عام كامل على زواجي، في الأشهر الأولى، كانت مياه الخزان تفرغ بسرعة من كثرة الاستحمام اليومي، ربما كان السبب قلة المياه في الحي، لكن بكل صراحة: كان دائماً يُشعل خاصرتي بالشموع ليلاً. ولا يكتفي بلغةٍ واحدةٍ، كان يجرب كل اللغات في لحظة واحدة.

أنا أحببت أن أتعلم اللهجات أيضاً معه ... عطره واحد لم أشم سواه، (كاليونيا خمس خمسات) حتى حين يحلق ذقنه في بادئ الأمر كان يضعها. أي شيء أطهوه يأكله وهو مبتسم، ثم يأكلني وأنا أبتسم ... .

لكن ذاك المساء أذكره، حين جاء أصدقاء الجيب لزيارته، فتغير الحال، قبل أن يغادروا تركوا بندقية، ومجموعة من الرصاص،

وأعقاب سجائرهم كخنافس تسبح فوق البلاط، وآثار أحذيتهم، تذكرني بآثار الغرباء...
دخلت عليه، سألته:

- ما هذا؟
- بندقية، لا بد أن أشاركهم الحراسة، الحدود تتحرك في الليل، وصياد الغزلان لا يرحمنا.
- هل ستتركني وحدي، وأنا أسمع من يقترب من هناك قد يموت ... .
- لا تخافي، سأكون حريصاً على أن أعود كل ليلة، لكن لا تنامي قبل أن تحضري العشاء.

وقتها يا سماح، ظلّ سرحان في تفاصيل البندقية، فككها أكثر من مئة مرة، وجمّعها، لم ينتبه إلى ملابسي الداخلية التي اشتراها حين سألني عن اللون الأحمر.

أذكر في تلك الليلة، غيرت له جميع الألوان، لم يترك البندقية من يده، ونمت عارية على لون جلدي، لعلهُ يحركه ... ووضعت

ملابسي الداخلية بالقرب من السرير. لكنه نام بالقرب منها، وتقلب عليها، وطوال الليل كنت أشعر أنه يلعقها.

حين نشط في العمل، كنت أراقب الأخبار، أتحسس كل الشبابيك، وأنا أراقب أنفاسه من أول الشارع.

بدأت أحبه، وصرت أرتب ملابسه بشكل أنيق، ألمع له حذاءه، لم يشعر بيّ. كان طوال النهار في الحراسة، وحين يعود يبتسم، ويطلب العشاء.

وفي يوم مقلوب حكى ليّ قصة الأرنب الصغير، وتنافسه هو أصدقاؤه على صيده بالرصاص. لكن لا أحد استطاع أن يصيبه، وتراهن معهم في اليوم التالي على صيده، وإن لم يصده، سيظل يحرس طوال الليل والنهار لمدة ثلاثة أيام.

في بادئ الأمر حزنت على الأرنب الصغير، الغرباء يقتلون الغزلان، ونحن نتنافس على قتل الأرانب.

لكن يا صديقتي: لو مات أرنب واحد لا يضر سرباً من الأرانب، لكن لو لم يتمكن من صيده، سيحرمونني منه ثلاث ليالي طويلة، ووقتها كنت مشتاقةً لأحد بجواري، الحي بارد، والكهرباء دائما مسافرة ... .

في اليوم الثاني جاء باكراً، كان حزينا. سألته ما حدث للأرنب، صدته وكسبت الرهان.

- يبدو أنك كسبت الرهان لأنك عدت باكراً.
- وجدنا الأرنب مقتولاً برصاص دون رصاصنا. صائد الغزلان، أيضاً، بارع في صيد الأرانب، ثلاثة أيام لم نستطع صيده لأنه لم يكن قريباً منّا، وكان قريباً منهم، لأنه كان يأكل من عشبهم، إنهم هكذا، يدخلونك جنتهم، ثم يحرقون الجنة فوق رأسك.

لم أفهم ما يعني بالكلام، لكن على كل حال الأرنب مات، وهو عاد لي باكراً، وجرني للغرفة، شعرت أنه صياد وأنا الأرنب. وطوال الليل كان يرش شهوتي على العشب.

[أرنب صغير يموت، ولا تفقدي حظيرة رجال، في ليل بارد].

صارت حياتي مربوطة بعقدة لا مناص منها هي الحدود. لو تحركت دبابة، أظل أكثر من أسبوع لا أراه، والمصيبة لو أن المذياع أكد خبر الاجتياح. لا أراه موسماً كاملاً، كطائر الربيع (الهزاز) كل شتاء يمرّ.

يأتي عليّ موسم كامل وأنا أراقب وأعد أصوات القطط. أمي وأبي كلما ذهبا للسوق لشراء لحمة العجل، يمران ويسلمان عليّ، وتحضر ليّ أمي أشياءها الساخنة.

كانت تظن إني جائعة، لا تعلم أني جائعة لظله، له، لأنفاسه ... تجرأت في إحدى زيارات أمي، وقلت لها:

- المعدة يا أمي تمتلئ بأي شيء، لكن المناشف مشتاقة مذ زمن أن تذوق طعمي دون الصابون والشامبو.

كانت أمي لماحة فحضنتني، وقالت:

- كان أبوك يتركني طويلاً بحجة العمل هناك، وكنت أرقص طوال الليل لأهدأ من تفكير الشيطان في رأسي.

مؤخراً، نمت كثيراً في بيت أبي، على السرير الذي تقابلنا فوقه أول مرة. أيضاً أربط المنديل المرقط القديم دائماً على يدي، لا أعلم لماذا أفعل هذا، لكن في كل الأحوال من كثر غيابه أشعر أني ما زلت عذراء. وبكارتي كما هي، كلما زاد بعده عني، يتحول جسدي إلى فتاة تفقد جزءاً من أردافها، وصدري يدمر يوماً بعد يوم.

في لحظة خفت أن أنسي دروس تبادل السوائل، فمسكت ورقة ورسمت نفسي وأنا عارية، وحاولت أن أرسمه وهو عارٍ: ذاكرتي لم تساعدني على تخيله. [البعيد عن الجسد، بعيد عن أخشاب الجنس].

قد تستغربين من أين جئت بلغتي الجديدة، وأنت تعلمين أني لست فيلسوفة، أنا قرأت أكثر من ألف ورقة من صحيفة قديمة. كانت الصدفة هي المتحكمة في ذلك، طلبت منه أن يحضر لي ورقة جرائد لأنظف زجاج البيت. فجاء في اليوم الثاني يحمل مجموعة

بوزن ثلاثة كيلوغرامات كما قال، اشتراها من بائع الفلافل في الحي.

استخدمت جزءاً بسيطاً منها، ووضعت البقية بين رفوف مطبخي الفارغ من الأطباق، سوى طبقين ووعاء للطهي، ومقلاة للبيض. ووعاء الطهي استخدمه لتسخين المياه حين تقطع الكهرباء.

لا أقول إني فقيرة من قلة الأطباق، ولكن تعودت على الطعام القليل. وأمي كانت ترسل أخي الصغير كل يوم منذ زواجي، بطبق جديد ظهراً.

سمعت في يوم كركعة (ضجة) في المطبخ، ذهبت لأكتشف السبب، فلاحظت الجرائد والغبار عليها في بادئ الأمر قلبتها وشاهدت كل الصور، في مرة أخرى قرأت أخبار الفنانين، في المرة الثالثة قرأت الأشياء البسيطة وعناوين الاختراعات.

لكن لأن الوحدة طالت، تجرأت على قراءة الصفحات الثقافية، والمقالات السياسية الطويلة، كلها تشبه بعضها البعض.

الجميل في تلك الجرائد، كان مقالاً لسيدة تشبه كلام السيدة التي كنت أسمعها في المذياع قبل زواجي، لها عمود (عن الحياة والمرأة)، قرأت كل مواضيعها.

لكن تفاجأت بخبرٍ عنها في إحدى الأوراق أنها هربت مع عشيقها، وتركت زوجها.

كنت شغوفة، لأعرف لماذا تركته، قلبت كل الأوراق لم أجد السبب، لكن في مراقبتي للأخبار في التلفاز، جاء لقاء معها ومع زوجها. وسألها المحاور:

- لماذا تركتِ زوجك وثم عدتِ له؟

أجابت أنها عادت له لأنه زوجها وتحبه، حين بدأت تحكي لماذا تركته، انقطعت الكهرباء.

لو علمتِ يا صديقتي لماذا تركته أخبريني. لو كان سببها مقنعاً، قد أفكر بترك زوجي، وأهرب معك حين قلتِ ليّ أهربي ... ارفضي هذا الوضع ... والسؤال الذي سأجيب عنه لماذا سأهرب؟

أذكر طوال الفترة جاءني مرتين، أول مرة كان على عجلة من أمره، ركب أمواجي وصار يجدف، وأنا كسمكة أهرب منه، لأصل لمتعتي. لكن جهاز اللاسلكي اللعين قطع اللون الأزرق في عيني، حين سمع نداه، سحب عشبه ومطره، وكل تضاريسه عن سهولي وأنطلق ليلبي النداء، وتركني نصف مشتاقة، نصف فارغة، عصفور كناري أصفر بجناح واحد لا يقدر على متعة الطيران.

بعد أن تساقطت أوراق شجرة الجميز، وباب البيت صار مسرحاً لقتل الفصول، كنت أشعر كل الفصول خريفاً، السماء صفراء، الطعام أصفر، كنت مشتاقة جداً للون الأحمر، أو الاحمرار.

كنت دائماً أشتري الليمون الأخضر وآكله وأنا صغيرة مع قليل من الملح، لكن بعد أن جاءت البندقية لزيارتنا، صارت كل الثمار صفراء.

جاءني وألقى ظهره على السرير، وقبل أن يشخر النعاس في أنفه، قمت بعمل تنفس صناعي له، فكان لفمه رائحة، وحين خلع حذائه شممت رائحة قبر متروك منذ زمن الفراعنة.

لكن حبي للاهتزاز، جعلني أشهق كل العفن، وبعد كل ذلك سال نهري بالقرب من القبر العفن.

عام واحد يا صديقتي لم يتغير سوى أني صرت شغوفةً بتبادل السوائل.

ما زالت قطع الصوف عالقة فوق جلدي

لا تسل عن سلامته روحه فوق راحته
بدلته همومه كفناً من وسادته
يرقب الساعة التي بعدها هول ساعته
شاغل فكر من يراه بإطراق هامته
بين جنبيه خافق يتلظّى بغايته
من رأى فحمة الدجى أضرمت من شرارته
حملته جهنم طرفاً من رسالته

بدأت مريم تألف حياتها، الفراغ صديقها الوحيد. دائماً تضع صندوقها أمامها وتسرح في زوايا البيت، تدور كنحلة حول الكرسي المفضل لها. ثم تجلس عليه طويلاً ليمتصها، لو كنت أنت زائراً لهذا المشهد، لن تراها، وقد لا تشعر بها أبداً، كانت جزءاً من الكرسي.

إنها كأي امرأة، الفراغ يدخل في خلايا رأسها، كثيراً حاولت أن ترفض اللحظات التي أجبرتها على العيش عليها. تنسى أنها

لبست ظلاً جديداً، أفكار سماح كانت كنقار الخشب، ينقر وينقر. وقتها تتخيل أنها في عالم الألوان، أنها فراشة، وتلاحقها الذكور.

حين تدخل هذه الأفكار إلى مخيلتها، تتقلب على الكرسي، كحلزون يستحم في البحر. تتقلب، كأنها مصابة بألم في بطنها، يدها تدغدغ صدرها، وعرقها يغسل عرقها من فوق جلدها، احمرار عنقها يتوهج، لكن قبل أن يتكسر الماء ويبتلعها الكرسي، تقف وتقول: أنا أخطأت ... .

تدخل إلى الحمام، تغسل وجهها، تفتح التلفاز، تجلس مرة أخرى، على كرسي آخر، لتنسي ما حل بها من فراغ.

تشعر بأن الكرسي الأول يعاتبها، لأنها تركته في منتصف الطريق، تزيح رأسها عنه.

تركّز في صور التلفاز، لكن لا يوجد في الحي لحظات للتوبة، التلفاز بدأ يشوش من أجهزة المراقبة والطائرات التي تضاجع سماءه في كل لحظة.

تحاول أن تصبر على التلفاز، لكن الكهرباء كانت أيضاً تعاند توبتها حين قفزت من الشباك.

كان صوت القصف موسيقى تدب الخوف داخلها، أين تهرب؟ وأين تحتمي؟

نظرت إلى الكرسي مرة أخرى، وجدته مهيئاً وله ذراعان أبيضان، ألقت نفسها في أحضان الكرسي، تقلبت وتقلبت، فسالت التوبة كغبار يلطخ البلاط.

سالت من الكرسي، لتنزل بنعومة على البلاط لتطفئ حرارتها، أصبحت كتلة من قماش لا ملامح لها، سوى بياض أقدامها التي تعصر خاصرتها، الارتخاء غاص في تفاصليها، حتى نامت وهي تهتز.

حاولت أن تقاوم لتنهض من جديد، لكن المتعة حبستها، فشعرت بجفاف في حلقها، قاومت العطش، حركت لسانها فوق شفتيها، [حين تصاب بالعطش لا بد أن تشرب].

كانت زجاجة المياه، تبعد مترين عنها، مدت يدها، "تعالي يا مياه، لتطفئي عطشي، لماذا أنت بعيدة مثله. من يوم أن حمل البندقية، صار هذا الكرسي ظله، أشم رائحته وتجاعيد ذكورته تشبه صوفه، تعالي، يكفي شيء واحد بعيداً عني".

صوت دقات على الباب بقوة، قطعت حديثها مع زجاجة المياه، نهضت. رتبت ملابسها، مسحت عرقها، عدلت الكرسي، غطت خاصرتها، ونسيت أن تشرب ... .

- افتحي يا مريم، هل أنت نائمة؟
- من على الباب
- أنا أبوك، طويلاً وأنا أدق، لا تسمعين، هناك أمر خطير حدث.
- حاضر يا أبي سأفتح الباب.

فتحت الباب، كان وجه أبيها شاحب، ارتعبت أن يكون قد كشف أمر الكرسي، نظرت خلفها لكن كان يقف في مكانه المناسب.

- هو وأصدقاؤه قصفوا، عند أطراف الحي، ويقول الناس إنه بخير، ونقل إلى المستشفى، هيا لنذهب له، غيري

ملابسك، وأحضري ملابس له، وعطره، ولا تنسي قطعة الصابون، ومعلقة وشوكة للطعام.

- يمكن أن تنتظر يا أبي حتى أستحم، تُحدث في سرها "ما زال صوف الكرسي عالقاً بجلدي".
- لا وقت لدينا!

جرّها خلفه، وانطلقا بين زقاق الحي، ليستقلا سيارة إلى المستشفى. كانت شوارع الحي تعج بالناس، والكل ينظر لأبيها، ويلقون التحية "لا تقلق إن شاء الله الأمور بسيطة" كان يهز رأسه بالشكر على هذا السؤال.

- هيا تحركي يا مريم لنصل بسرعة، يبدو أن الوضع سيئ، لأن ملامح الناس لا تبشر بخير، لا بد أن تكوني قوية في هذه اللحظات، نحن في هذا الحي لا بد أن نملك قلوباً من حديد. ثم اتّجه بالحديث بتركيز، أنت لا تعلمين أين يذهب مؤخراً، هل تعلمين أي شيء عنه؟ مؤخراً لم تأتِ برفقته لزيارتنا، هل هناك مشاكل بينك وبينه، نحن لا نعلمها؟ أنت يا مريم لا تهتمي كثيراً بأموره!
- هو مشغول عني.

- لا تحكي مثل هذه التافهات، هو طبعاً مشغول بالعمل، لكن أذكر آخر مرة رأيته بها كان رث الثياب، لماذا لا تغسلين ثيابه؟ هل تظنين أنك صغيرة؟ أنت الآن امرأة.
- يا أبي أنا لا أراه، وحين كان يحضر للبيت، يغادر دون أن يبدل ملابسه.
- أنتن يا نساء لا تعرفن كيف تجذبن الرجال لحياتكن.

أشار إلى سيارة، لتقلهما إلى المستشفى، كانت السيارة نفسها، التي ذهبت بها إلى المقبرة، والتي زفت بها يوم زفافها، [يبدو هذه السيارة قدرك يا مريم].

- لو سمحت يا سائق إلى المستشفى، عندنا مصاب، ونريد أن نسرع لنطمئن عليه.
- نصف المصابين ماتوا وهم ينزفون، لم يستطيع أحد الوصول لهم ... قصفوا بالقنبلة، على الحدود.. (قال السائق).
- أسرع لو سمحت!

وصلا إلى المستشفى، من المشاهد التي أدهشت مريم، طار خيالها، إلى شيء لم يكن واقعياً.

[الموت والحياة، لا بد أن يصاحبهما الضجة] ... ممرات المشفى الضيقة، ورائحة الفونيك، التي تنبعث من بلاطها.

أبواب الحمامات المفتوحة، وبخاصة حمامات النساء، الأطباء والممرضات يدورون حول بعضهم البعض، لأن الدواء دائماً ناقص، والدكتور المتخصص متأخر، والحالات المرضية تموت في هذا المستشفى دون تقديم أي خدمة، عامل النظافة يكنس النظافة ليزيد الأتربة في هواء الممرات.

كانت تراقب كل التفاصيل المملة في المكان، الأدراج الموجودة في كل مكان، صراخ المريض، وهو يبول على نفسه.

هل هذا من آثار القصف الذي حدث في ذلك اليوم؟

لأنه مستشفى واحد، أكيد سيجتمع كل مرضى الأحياء المتلاصقة في الشفرات الوراثية، وفي الهواء نفسه، أيامهم كلها قصف.

غرفة واحدة ودرج حاد متسخ يفصلهم عن غرفته، بعد أن أرشدهم أحد عمال النظافة عن وجودهم.

فجأة ظهرت بالممر فتاة تشبه سماح، نزلت على الدرج بسرعة، صارت مريم تلوح بيدها لها بحركات منخفضة، خافت أن تنادي عليها فيغضب أبوها، [متى للأشياء الجميلة أن تتخلص من سلطة الحاكم].

كان ممدداً على سرير يشبه أسرّة الحي، القماش الأبيض ملصوق على كل تفاصيل جسده.

الطبيب الذي عالجه ووضع الشريط الأبيض والدواء الأحمر يفتقد إلى علوم الخرائط، ولم يكن من سلالة الإدريسي.

كان منظره مشوهاً، تحول جسده إلى خريطة عالم مصابة بزلزال، حول القارات إلى جزر جافة حمراء.

ألقى أبوها التحية على الجميع

(حمد لله على سلامتكم)، لم يرد، كان بغيبوبة، نصفه أبيض. رأسه مكدس بالشاش الأبيض تشعر أنه ذو القرنين، وبقع الدم والدواء تشارك اللون الأبيض، ليظهر كلوحة سريالية قديمة شارك كل عظماء الفن مثل بيكاسو وسلفادور بخربشتها ... .

بقع الدم، أخبرتها أن تبتسم، لأنه في ليلة زفافها، خرج منها قطرات لم تحول القطعة البيضاء إلى اللون الأحمر. لكن كمية الدم المتساقطة منه تكفى لجعل كل نساء الأرض يفقدن عذريتهن.

اقترب لتهمس في أذنه، كانت رائحة الدم لا تختلف عن رائحة قطع قماشها. الدم واحد في القصف والزواج، هل حين قصفتك الحدود، كانت تريد أن تبادلك السوائل؟؟

يوما بعد يوم، يخف الدم، ويعود لسانه ليتكلم.

كانت تجلس عنده طوال اليوم، في الليل تذهب للبيت وهي تخزن مئات المشاهد.

(كانت المشاهد كأنها نبات القات) لتؤنس وحدتها بين جدران بيتها.

تعافى وصار يمشي، وهو يرتكز على كتفها الصغير، وقبل أن يخرج من المستشفى، شعرت أنه بحاجة لها، أكثر من الوقت الذي مضى.

لا تموتي دون أن أراك

غيابُكِ عني أضرم النيران في طُرقي ... غيابُكِ عني ... أخرسني.

غيابُكِ عني ... شبح يحاول خنقي ... غيابُكِ عني ... جعلني أجيد تمثيل القوة، أجيد تمثيل البحث والانتظار، أجيد أن أكون كما كنتُ معكِ سابقاً أمام الناس وأنا بعد الغياب.

******

دخل دون أن ينتبه لها، كان يجر شيئاً غريباً بالنسبة لها، أدخله في الغرفة، وصفع الباب خلفه.

ارتبكت فنهضت عن الكرسي، أشار بيده بالتحية، فتش في جيوبه على سرعة، أخرج الهاتف وسلسلة المفاتيح، سقطت ورقة لم ينتبه لها.

ظلت تراقب سرعته وهو يدخل بين ممرات البيت، كل مرة كان يذهب ليطمئن على الشيء الغريب.

أشار مرة أخرى لها بالتحية. فخرج دون أن يتكلم ولو كلمة تضاف لحركة يده معها ...
مالت على الورقة لتعرف ما بها ...

كان مكتوباً عليها، (الرجاء تسليم هذا الكيس لمنطقة رقم 3 وفي الساعة الحادية عشرة مساء لرجل يلبس قميصاً أحمر).

(في آخر الورقة إننا علمنا من الذي يرقبنا (المشبوه) إنها سيدة، سمراء طولها 160 سم، تسكن في أطراف الحي، عائلتها هاجرت إلى الحي من بلاد المغرب ...).

حين انتهت مريم من القراءة شهقت نفسها، كاد قلبها يقفز من الخوف، إن هذه المعلومات تطابق ملامح سماح صديقتها، رغم أنها لم ترها منذ ليلة زفافها.

أصابها دوار في رأسها، سماح كيف وصلت إلى هذا الحد بأن تكوني مشبوهة، مرة أخرى إلى الورقة، لتقرأها فقد تجد سطراً يبعد الشك عن صديقتها.

أمسكت الورقة بعنف، وجلست تتخيل الموضوع، دخلت وجه سماح على ذاكرتها، كل المواقف القليلة التي حدثت بينها وبين سماح، كان رأيها ناضجاً بالنسبة لها.

لكن الشيطان كان مُسلياً أيضاً في تلك اللحظة.

تذكرت ... كانت في طريق المدرسة الطويل، كانت سماح تلبس بنطالاً أزرق ضيقاً، وتمشي وهي مرتاحة في الطريق.

حين يمرُ أحد الشباب، تبتسم له دون مقدمات، كنت أحذرها من هذا العمل العيب.

كانت ترد سماح:

- عيشي حياتك، غداً حين تتزوجين ستوضعين في قفص أسود وتخدمين ليلاً ونهاراً ... في تنظيف الأطباق والبلاط، وفي الليل تغسلين جسد الرجل، من آثار المتعة، (وقتها احمرّ وجهي من كلامها الصريح).

ابتسمت سماح في وجهي، وأمسكت يدي لنقطع الشارع، حين وصلنا الرصيف الثاني، مرت سيارة صفراء يقودها رجل غريب، أوقف السيارة بالقرب منا وابتسم لسماح، وقال لها:

- هل أبوك في البيت الآن؟ لم ترد سماح واكتفت بتحريك أكتافها، حين سألها.

سألتها:

- من هذا الرجل (كان شكله من الأثرياء)؟

لم تحكِ، اكتفت بأن عضت على شفتيها.

ظلت تقلب الورقة أكثر من مئة مرة، وتضع الشك بأن تكون سماح قد ذهبت في هذا الطريق، هناك جملة في آخر الورقة وهي عبارة عن رموز حاولت أن تقرأها بأكثر من طريقة، وبعد أن فكت شفرتها.

كان مكتوب:

(حاول أن تراقبها، لو تأكدت أنها (المشبوهة) اقتلها وألقِ جثتها في القمامة ...). ارتعشت مريم من هذا السطر.

الرسائل التي كتبتها أود أن تقرئيها قبل أن يكشف أمرك، لكن خوفي من أن أتهم بأنني معك، الرسائل دليل على إرسالي معلومات عن زوجي المقاوم، لا أحدَ سيصدقني أنني فقط كتبتها لمجرد الذاكرة.

لكن يا صديقتي سماح في هذا الحي الموت مجاني جداً ... .

أذكر قبل زواجي أن هناك رجلاً من رجال الحدود، قتل برصاص الغرباء، وحين جاء أصحابه انقسموا قسمين، قسم أخذ الجثة ليدفنها، والقسم الثاني كان يحقق من قتله.

فلم يجدوا سوى عمي يوسف البقال يجلس في دكانه، فوجهوا له تهمة قتل صاحبهم، أخذوه وصلبوه أكثر من عشرة أيام، استخدموا معه كل وسائل التعذيب كما حكى لنا أبي حين رآه ملقى بالشارع، كانوا يذيبون البلاستيك على جلده، ويقطعون أطراف أصابعه.

[لو كان أحد مكان عمي يوسف البقال لاعترف بأنه صديق هتلر في الحرب العالمية]. لكن لا أحد في الحي، كان بصف يوسف، إلا أنا حين سألت أبي:

– كيف حصلوا على اعتراف منه وهو كان لا يكتب ولا يقرأ، وقتها صفعني أبي على وجهي.

وقال:

– اسكتي لا دخل لنا بالأمر.

كل أهل الحي وقتها لم يبتاع من دكانه أي شيء، بعد أن جلست زوجته وصغاره يبيعون ويشترون فيها، أنا وحدي كنت أذهب لاشتري من الدكان، وكنت ألعب مع صغار عمي يوسف.

طفله الكبير في يوم ترك الحي وهرب وقال لأمه أنا سأنتقم ممن قتل أبي، أخبرتني زوجته بما حدث حين كنت أذهب للدكان. [هل هذا الطفل سيعرف من قتل أبيه، أو مجرد طفولة].

لكن يا سماح، لو كان حظك كبيراً، أكبر من حظ عمي يوسف لا بد أن أراك وأخبرك بأن زوجي ورجاله، سوف يراقبونك ويقعون بك، ثم يقتلونك، لأنك مشبوهة، إن الله خلقني لأدافع عمّن حولي، لكن لا يوجد أحد يدافع عني.

يا سماح لا بد أن أدافع عنك عند رجال الحدود أمام زوجي، لو هناك نصيب لأفديك بروحي ... .

جاءت أمي في اليوم التالي كان وجهها مكتظاً من السواد.

- صديق زوجك قتل جاره، ظلماً.

- قال عنه: إنه كان يدخن المارجوانا (البنقو).

لكن القصة مختلفة تماماً، "دائماً كان يتقاتل هو وجاره على شباك يطل على غرفة نومه.

فأمر جاره أن يغلقه، لكن الجار تعذر لأنه الشباك الوحيد في البيت، وهو متنفس بيته، وبعد أن انتهت قصة الشباك، اختلق

صديق زوجك قصة المجاري، وكان يتهمه بأن مجاريه تغرق جدران بيته، لكن السبب واضح. الحي كله ليس له مجاري صرف، وكل بيوتنا تعاني من ذلك.

هذا الرجل له فتاة بعمر السابعة عشرة، كان يغازلها، ولكن حين شكاه إلى أهله، غضب منه وقتله برصاصة، أمر مكتب التنظيم أن يصدروا أمراً بأنه كان يدخن الممنوعات.

الحي يحكي بتفاصيل القصة، ولم يقم له بيت عزاء، الرجال منهم كانوا ضد قتله. لأن الدخان ليس جريمة كبيرة، ومنهم قال النظافة من الإيمان، لكن ابنته وزوجته هربتا إلى مكان بعيد لا نعلمه ... .

كانت مريم تضع يدها على وجهها، وأمها ترصد لها أخبار الحي، كنشرة أخبار عن الطقس اليومي.

أغلب القصص ساخنة جدا، معظمها قتل وخطف، أغلب القصص زواج أو موت يكون بطلها حراس الحدود ... .

تنهدت مريم وقتها، وقالت الأم:

- هذه الأخبار تستحق التنهيد، لا شيء يسر البال.
- هذا يا أمي اسمه القتل المجاني في هذا الحي، غدا أي أحد يقوم بعمل دون قصد، سيقتل دون أن يترك له وقت يدافع فيه عن نفسه..
- أبوك يغلي غضباً على أخوتك، يقول لهم: اعملوا في المقاومة خير لكم.
- أمي هل رأيت سماح صديقتي، التي زارتنا مع عائلتها قبل زواجي، هي وأبيها وأمها.
- أذكرها، رأيتك مرة تمشين معها في شارع المدرسة، لكن يا مريم كان لبسها غير مرض، ومن وقتها لم أردك أن تمشي معها، الحمد لله أن أباك لم يركِ في تلك اللحظات.
- أمي أريد أن تبحثي عنها أو تسألي عنها كل من تعرفين من النساء، هي في خطر، يبدو أن أصدقاء زوجي سيوقعون بها بمشكلة، لشك داخلهم بأنها تراقبهم عند الحدود.
- إذا كانت قد فعلت ذلك، هذا عقابها، حاولي يا مريم أن تنسيها، ولا تفكري بالأمر واهتمي بزوجك ... كل يوم

تأتي أخبار غير مطمئنة من ورائها، بأنهم سيهجمون على الحي، لأن الأخبار وصلتهم من الواشين بأن هناك أسلحة تضر بأمنهم.

[هذا ما تقوله الأخبار]

- أنا يا أمي أشعر بأن سماح مظلومة، حاولي أن تساعديها. ولو رأيتها قولي لها أنت بخطر، العيون عليك، لا تقتربي ناحية الحدود.

موت سماح

كانت تجلس على كرسيها، الدافئ شتاءً، اللطيف صيفاً. حين تجلس وتضع رأسها لتدلك رقبتها بصوفه، تكون قد لاحظت بأن شجرة الجميز تعلن انتهاء النهار ببوق له صوت لا ضجيج له.

يتكور الليل تحت إبط الشجرة، كان آخر سرب من طائر الدوري زقزق للنوم.

كل هذا كان ممتعاً لمريم وهي تراقب سترة الظلام وهي تمزق صوت الحي، لترتاح الحناجر من شوكة النهار الطويل.

أهل الحي يعرفون أن كل ليلة عليهم أن يختبئوا باكراً.

لو أقلتك الصدفة لتمشي ليلاً في هذا الحي، ستسمع ثلاث أصوات: صوت مضاجعة النساء لأن البيوت تكاد تكون متلاصقة جداً؛ وصوت الدبابات والآليات التي تمشط وجه الحدود؛ صوت بعض الرجال من حراس الحي وهم يتهامسون عن خبرٍ بصوت يكاد يكون مسموعاً بالنسبة لهم.

هذا الهدوء، الكل يرتاح في خاصرته، لتطلق عنان تخيلها، لأن تحصد القمح في الصباح مع زوجها الغائب من الصباح حتى هذا الليل.

بدأت ترخي تماماً، لولا صوت مفتاح يدخل بالباب، أدركت أنه حضر، كادت سعادتها تقفز منها.

دخل، أشار لها بيده، أن تدخل إلى الغرفة، لأن أصدقاءه كانوا برفقته، دخلك مسرعة، وتركت دفئها على الكرسي.

لم تغلق باب الغرفة بإحكام، دخل مجموعة من أصدقائه، ومعهم فتاة مقيدةَ المعصمين، يبدو أيضاً أن شريطاً لاصقاً على فمها، كانت تئن من الخوف.

ارتعشت مريم وقتها، من هذا المشهد لأنها لم تتوقع أن مثل هذه الأشياء قد تحدث في بيتها.

حاولت أن تناديه لكنه كان مشغولاً بإرغام الفتاة على الجلوس، والصدفة أنها جلست على الكرسي نفسه ... .

تقدم أحدهم وخلع اللاصق عن فمها، فصرخت، فصفعها على وجها، وحذرها لو رفعت صوتها سيقتلها.

سكتت ولم تتفوه بأي صراخ.

سألها أحدهم:

- لم تخرجين في الليل وأنت فتاة.
- ذهبت لأشتري شيئاً للبيت.
- أنت تكذبين، أكثر من مرة تخرجين في هذا الوقت، نحن أكثر من شهر نراقبك، كما أنك تقتربين من الحدود كثيراً، يبدو أنه ليس بحوزتك بندقية، أكيد أنت ليس من حرس الحدود ... اعترفي بالحقيقة.
- أنا والله لا أكذب أقول الحقيقة، أنا لا أعرف شيئاً عما تتحدث عنه، أنا فقد ذهبت للدكان، فوجدتها مغلقة، فحاولت أن أعود، لكنكم جئتم بالجيب وخطفتموني، اتركوني، أهلي سيقلقون عليّ.

دققت مريم بموجات الصوت، رجفت حين أخبرتها ذاكرتها بأنها سماح.

هذا شكل سماح، وهي الوحيدة التي ترتدي البناطيل الجينز الزرقاء في الحي كله.

حاولت أن تخرج من الغرفة، لكن قدميها التفتا على بعضهما البعض حين سمعت صوت أحدهم وهو يضربها على وجها، فصرحت بصوت عالٍ، هز المكان ... .

انطلق زوجها وفتح الشباك ليراقب الشارع، فقال:

- لا تخافوا لا أحد بالشارع، حاولوا أن تنتهوا بسرعة، لو كانت مشبوهة، ستصل الآليات وتعتقلنا، لا أحد يعلم ماذا تخبئ لنا هذه المشبوهة.

تناوب كل أصدقائه بضربها، بعد أن فقدت وعيها، رشقوا وجها بالماء، قالت وقتها:

- يكفي ضرب. سأعترف بكل شيء، وأعطيكم كل شيء. هذا جسدي لكم أتركوني أن أذهب.

سألها أحدهم:

- كيف ثم ارتباطك معهم.

- حين طردوا عائلتي من بلاد المغرب، جئنا إلى الحي عبر مطارهم، واحتجزنا أكثر من ثلاث ليال، أبي في غرفة وحده، وأنا في غرفة وحيدة، ولا أعلم أين ذهبت عائلتي في تلك الليلة، كنت أجلس على كرسي، في غرفة فارغة جدرانها مطلية باللون البني. دخل عليّ أحدهم، كان يحمل مجلة بها صور عاريات، وضعها أمامي، وصرخ في وجهي بأن اقلب الصفحات، قلبتها، فغادر الغرفة، تركت المجلة في أول مرة، لكن الوقت طال فصرت أقلب صفحاتها، فدخل عليّ فكنت قد انتهيت من الخيال، فقبلني، ثم ارتخي عليّ، وحين انتهي قال ليّ كل شيء مصور، لا بد أن تعملي معنا وإلا فضحنا أمرك بالصور، فخفت فوافقت على العمل معه، من وقتها وأنا أراسله عبر

قنوات خفية، وأعطيهم معلومات عن حراس الحدود، بشفرات تعلمتها منهم.

همس أحدهم بأذن زوجي، لا أعرف ما قال، لكنه أخرج بندقية، وضع رأسها بين وسادتين، وأطلق رصاصة، فلم يصدر أي صوت، سوى صوت شخير دمها وهو يسيل على بلاط الغرفة.

وقتها بُولت على نفسي، سماح تنزف سائلاً أحمر، وأنا مياهي بللت الغرفة، من الخوف. فحملها اثنان، وخرجا من البيت، وظل هو وصديق آخر لينظفا الدم.

وداعاً أيها الكرسي العزيز...

في تلك المشاهد الطويلة التي مرت عليّ، ولم تتحملها شجرة الجميز، حيث سمعت وقتها زقزقة طائر الدوري ليلاً، وكان هذا غريب.

سمعنا صوت سيارات خشنة الصوت، وفجأة دخل الغرباء، دون استئذان، البيت كله صار يعج بالغرباء كسرب من نمل أسود ضخم.

رفعوا بنادقهم في وجه زوجي وصديقه، كانت بنادقهم تختلف عن بندقيته، كانت طويلة وأكثر سواداً، تلمع، وضخمة، زوجي لم يتحرك وصديقه وسجدا على الأرض..

دخلا اثنان في الغرفة عندي، عندما لاحظا أن جسمي مبلل بالماء، زاد البلل مرة أخرى حين صرخوا في وجهي، تركوني كمشلولة لا حركة ولا كلام..

صرت وقتها كخيال ليس له ذراعين، ملقى على الأرض، وقتها من شدة الخوف أغمى عليّ.

استيقظت على صوت أهل الحي بالقرب من بيتي. زحفت ناحية الكرسي، كان ملطخاً بدمك يا سماح، هذا الكرسي، حين يكون حظه كبيراً أصبغه بسائلي بعد التقلب فوقه.

في هذه اللحظة هو يقطر بدمك يا صديقتي، الكرسي هو ذكرك الأول والأخير، إنه امتص سائلك وامتص روحك. هل سكنت روحك في عرش صوفه؟ هل حين أتقلب عليه ستسافر روحي وروحك في تفاصيله؟

لا أعلم كيف وصل أهلي إلى بيتي، يبدو أن وقت الإغماء كان طويلاً، أو هم كانوا أسرع من شوارع الحي ليقفزوا كل المسافات ليكونوا أمامي.

حضنتني أمي، مسحت على شعري.

كنت بحاجة لأحد يكسر زجاج ارتباك الدهشة عندي، خذيني يا أمي إلى واد ثلجي، ووزعي جسدي على مفارق حدائق النرجس، كرهت هذا الموت، أنيابه الزرقاء تدقني في هذا الحي.

يا أمي لو كنت شجرة جميز معمرة لماتت مما شاهدت في هذه الليلة، أخشابي جافة وأشعر نفسي متهيئة للنار.

انتقلت للعيش على سريري القديم، بعد اعتقاله، كانت الحدود أرحم من الجغرافيا التي انتقل إليها.

كان يوماً أو يومياً يحرك أخشابي في الموسم لأسقط ثماري فوق جسده، أما الآن تنضج ثماري وتموت على الأغصان فتأتي عصافير الفواكه تأكلني.

يوماً بعد يوم تأكدت أني امرأة ثكلى، لا رجل، والكرسي بعيد عني، والسرير لا يخدمني في الليالي القمرية.

كن مثلنا في هذا الحي، لا بد أن يكون كصندوق من حديد من كثر الأحزان، حكم عليه سنوات طويلة.

يا عزيزي غيابك في السجن سيطول، وعودتك مفقودة جدا، وأنا أرغبك بشدة، أنا أشبه رغبة قافلة تاهت في الصحراء لقطعة ثلج أو ظل للشجرة كبيرة جدا.

أرغبك جدا، في لحظات استحمامي، حين تتطاير فقاعات الصابون حولي، وحبي أن أفجرها وأنا أضحك معك.

مثلي أنا في هذا الحي، لا بد أن يكون كصندوق من حديد من كثر الأحزان

قد نرث روحه ولا نرث جسده من طول مدة الاعتقال.

كل عام كانت لنا فرصة أن نذهب لزيارته بعد أن أذن الغرباء لنا، ذهبت لزيارته أول مرة كان أكثر جمالاً، كان يتحدث كرجل صوفي، سأل عن كل أهل الحي.

تحدث عن حلم خروجه قريباً، في تبادل للأسرى، يبدو أن حلمك موجود في حوصلة طائر الرخ الذي غادر البلاد مع سندباد البحري.

شجرة الجميز كفيلة أن تعد السنوات، كأنها محاسب دقيق لا يفوتها أي فصل، وإلا تزينت بتساقط أوراقها.

كانت أمي تذبح بأوراق الملوخية، وتعصرها في وعاء كان كبيراً، غير المعتاد عليه.

- لماذا يا أمي أشعر أنك تريدين أن تخبريني شيئاً تمتنعين عن البوح عنه، ماذا يخبئ صدرك ليّ.
- زوجك مات.
- مات، (لا أعرف هل أبتسم، أو أحزن في تلك اللحظة، لكن حين مات الأرنب حزنت عليه) كيف مات؟
- تناحر هو ورجل في المعتقل، فضربه بقطعة حديد على رأسه، فمات. لأن الرجل اتهم زوجك بأنهم لم يكونوا يذهبون لحراسة الحدود، بل كان هو وأصدقاؤه يذهبون لمشاهد الأفلام الإباحية في بيت أحدهم.
- لماذا قتلوا سماح إذن، وهم لا توبة في عيونهم.
- قالوا إن رجل التغذية، حاول مع سماح، لكنها رفضت، فوشى بها لحراس الحدود، فقتلوها.

الآن حرة، وداعاً يا سماح، وداعاً يا زوجي، أنا الآن وحدي مع شجرة الجميز، والكرسي العزيز سيظل في حياتي طوال العمر.

السرير

مللت خيوط العطف البيضاء التي تحيكها عائلتي كل يوم، الأرملة مثلي لا بد أن تنتظر رجلاً جديداً يلفها بقوس قزح فاخر، الشوارع لا تنبث رجال. والشوارع في هذا الحيّ فقط تبتلع الرجال لا تنبتهم، حتى لو على شكل حشائش صغيرة تخرج من الصخور ليس لها فائدة، هذا الحيّ دائم الخريف (يتساقط الرجال، ولا يأتي غيرهم).

ومواسم الجفاف تزداد على الذكورة من الموت والاعتقال، والهجرة، ومن يكون ناضجاً يكون فقيراً. لا يقدر على حلاقة شعره ليكون جاهزاً للزواج.

الملل دفعني لأترك السرير، وأذهب إلى بيتي، حيث وجدت نفسي هناك، أراقب زوايا البيت. وراقبت في إحدى الزوايا عنكبوتاً تخيط كل يوم شكلاً جديداً على بيتها، عرفت تفاصيل حياتها، اكتشفت أنها أنثي، وأن العنكبوت قد يكون أرمل، مثلي أنا، لكنها تتبادل السوائل مع حشرات جديدة بامتصاصها.

جاءت أمي، كعادتها الغبية، تحضر الطعام، ووضعت، بعد أن حذرتني بأن أهل الحي يقولون عنك إن الوحدة ستصيبك بالجنون.

حاولت أن تتناول الطعام فوجدته ملفوفاً بورق جريدة، قرأت الخبر الذي أدهشها، الذي كانت تبحث عنه، السيدة التي هربت مع عشيقها، وكان بالخبر إجابة عن (لماذا هربت من زوجك؟) دقق في التفاصيل، كانت الإجابة أنها أرادت أن تجرب دونه من الرجال، ليزداد حبها لزوجها الأول.

[إن اكتشاف التغيير، يدعوك لحبك القديم]

لو كان موجوداً، لهربت منه، لرجل آخر، لكنه هو الآن في السماء، وقد قابل صديقتي سماح في طريقه.

دخلت الغرفة، فتحت الخزانة، فوجدت الشيء الغريب الذي كان يخبئه بالقرب من الفستان. كيس يحتوي على بندقية من نوع آخر، فكرت في اللحظة: لو أرادت التغيير، لا بد أن تلحق بزوجها، وبصديقتها سماح، ثم تتغير حين تقابلهما.

لبست أحد قمصانه، أسود اللون، جمعت شعرها تحت طاقية، رسمت على وجها خيوطا سوداء، خرجت من البيت ليلاً.

اتجهت ناحية الحدود وبيدها البندقية.

في طريقها كانت تعيد ذاكرتها عن القصص التي كان يخبرها عنها، كيف كانوا يطلقون الرصاص.

كانت ذاكرتها تدقق بالمتعة التي أخبرها بها حين يطلق الرصاص.

الأشجار الآن تفصلها عن الحدود، ركزت ظهرها لساق قصير، وتهيأت لتطلق الرصاص على أي ضوء أمامها.

صار أمام عينها أطياف، وجه عمها يوسف وهو يضحك، ووجه سماح ليس له ملامح، ووجه زوجها وكان مهموماً.

وجه الجار كأنه يشرب ماء، خافت من تلك الأطياف، حاولت أن تطلق على أحدها الرصاص.

لكن الخيار لمن سيقع يا مريم هم أموات، والرصاص لا يحيي الأموات، لكن صوت الآليات بدأ يحرك الأشجار، هربت الأطياف، فسحبت بندقيتها وأطلقت رصاصة لا غير.

لو كنت تجلس على كرسي في تلك اللحظة، وتراقب حركات مريم، كأنها ترقص فوق خشبة مسرح روسي، بأناقة ورشاقة، ستظن أنها راقصة بالية من الدرجة الأولى.

لكن، بكل صدق، هي حركة رصاص الغرباء في جسدها، وهو يخترقها، وحين تنتهي الرقصة وسألت مريم:

- لماذا ترقصين بجودة عالية؟

سترد:

- أمارس تبادل السوائل مع رائحة البارود، هذا البارود الذي أغرى زوجي، ليموت بعيداً عن جسدي، هو الذي أدمن سماح على لبس بنطال الجينز الضيق، هو الذي قتل

عمي يوسف، وجعل الإسفلت يتذوق طعم دمه، هو الذي أجبر جارنا على ترك زوجته تهرب مع الريح.

وقعت مريم لتتنزف طوال الليل، وفي الصباح شعرت أن هناك رجالاً بملابس بيضاء يحملونها، لترقد فوق سريرها القديم، وأمها وأبوها يدمعان عليها، وكان من الحضور أبو سماح، وقتها قال: ابتني ماتت لأنها اقتربت من الحدود.

نطقت مريم: أريد الكرسي.

لم يفهم أحد أي كرسي تريد، وأغمضت عينيها.

وظل صوف الكرسي الوحيد الشاهد بأن مريم قبل أن تخرج من منزلها إلى الحدود، تقلبت عليه جيدا، وكان ظل زوجها يتراقص فوقها... .

انتهت